لورا فيشيا فاغليري

دفاع عن الإسلام

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

هذا الكتاب

* لم تكن ثورة الاسلام انتفاضة مفاجئة يعقبها سقوط أكثر إمعاناً في الفجاءة ، ولكنها كانت ظاهرة تتميز بالقوة ، والاستمرار ...

* ولكن ما سر هذه القوة وهذا الاستمرار ؟ ذلك هو السؤال الذي تجيبنا عنه الدكتورة فاغليري في كتابها هذا البالغ النفاسة .. ولقد اعتمدت في دراستها على علم غزير ، واخلاص عميق ، وعلى مشاركة وجدانية وحسن تفهم . وهذه المزايا هي التي جنبتها مزالق الضلال وهدتها إلى الجواب الصحيح ...

* ان كتاب « دفاع عن الاسلام » هذا كتاب وجيز ، ولكن حقلاً واسعاً من حقول الدراسة ينطوي فيه . فضمن دائرة ضيقة وفقت الدكتورة فاغليري إلى استعراض مظاهر الاسلام الرئيسية استعراضاً موجزاً بارعاً . ومن طريق تصوير الاسلام بمثل هذا التـ الحسن لم تسد الدكتورة فاغليري يداً بيضاء إلى الغـ وحده ولكنها اكتسبت إعجاب العالم الاسلامي ومـ أيضاً ...

ظفر الله خان

من مقدمة الكتاب

Bibliotheca Alexandrina
0422552

http://www.al-maktabeh.com

دِفاعٌ عَنِ الإسلام

لورا فيشيا فاغليري

اهداء من دكتور
حافظ يوسف

دِفاعٌ عَنِ الإسلام

نقله إلى العربية
منير البعلبكي

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢ - ٢٩١٠٢٧

Apologia dell ' Islamismo
by
Laura Veccia Vaglieri

جميع الحقوق محفوظة لـ
دار العلم للملايين

الطبعة الخامسة
كانون الثاني (يناير) ١٩٨١

http://www.al-maktabeh.com

مقدمة الترجمة الانكليزية

يسرّ الناشرين* أن يعترفـــوا بفضل الدكتورة لوريا فيشيا فاغليري ، استاذة اللغـــة العربية وتاريخ الحضارة الاسلامية في جامعة نابولي بأيطالية ، على المشتغلين بالدراسات الاسلامية وعليهم هم ، لتأليفها هذه الدراسة الموضوعيـة عن الإسلام .

ونحن مدينون ، بالقدْر نفسه ، للدكتور آلدو كازيللي **Aldo Caselli** الذي أخذ على عاتقه مهمة نقل هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية ، وهي مهمة شاقة عسيرة . وقد نال الدكتور كازيللي شهادة الدكتوراه في الفلسفة من كليـــة الاقتصاد في جامعة نابولي ، وقضى عدة سنوات في الشرق

---

* مؤسسة ليلى خالدي التذكارية في بيروت ، وقـد تولت نشر الترجمة الانكليزية وطبعها في مطابع مـاك غريغور ووينر بواشنطن ، الولايات المتحدة . وهذه الترجمة العربية إنما تمت بأذن كريم منها .

الأوسط مترحلاً ودارساً أحوال الأمة العربية . وقد نشرت الصحف الايطالية كثيراً من مقالاته عن الثقافة والمؤسسات الاسلامية . ثم وفد الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٨ ، وهو اليوم استاذ في كلية هافرفورد ، بنسلفانيا . وانه لما يبهج النفس ان ينهض بعبء أول ترجمة انكليزية لهذا الأثر الهامّ عالمٌ كبير كالدكتور كازيللي .

ويُسعدنا أيضاً ان نقدم واجب الشكر الى السير محمد ظفرالله خان ، عضو محكمة العدل الدولية، لتفضله بالتقديم للترجمة الانكليزية من هذا الكتاب بكلمة قيّمة جداً .

وأخيراً يحسن بنا أن ننصّ على ان هذا الكتاب نُشر في الاصل الايطالي بعنوان **Apologia dell Islamismo*** وقد قام بنشره أ . ف . فورميجيني ؛ في رومة ، ايطالية، عام ١٩٢٥ .

---

* أي « دفاع عن الاسلام » ، أما الترجمات الانكليزية فنشرت تحت عنوان *An Interpretation of Islam* أي « تفسير للاسلام » .

مقدّمة

بقلم السير ظفرالله خان

لعلّ نهاية القرن السادس ومستهل القرن السابع من التاريخ المسيحي كانا أشد عهود القرون الوسطى ظلاماً . كان الدين والأخلاق ، والثقافة ، والفلسفة ، والعلم في انحطاطٍ بالغ . ولم يكن يلتمع ههنا وههناك غير ومضةٍ كانت تبدو وكأنها تؤكد الظلمة الكونية الشاملة .

وفي شبه الجزيرة العربية كان الظلام على أحلكه . كان فقدان أيما شكل من أشكال الحكومة المنظمة قد جعل حياة الناس وممتلكاتهم في خطر موصول ، لا يخفف من حدّته بين الفينة والفينة غير الأحلاف العشائرية والقبَلية التي كانت تكبت الضغائن وتُقيم بين المتنازعين توازناً قلقاً . وكان سكان شبه الجزيرة يجهلون فنون السلم وقواعد

الحرب سواء بسواء . كان السلب والقسوة هما العـــرف السائد والزيّ الشائع . ولم يكن ليحـــدّ من عنف ذلك السلب وتلك القسوة غير فكرات عن فروسية فجّة وعن حسن الضيافة ، وغير الرغبة الملحّة في حفظ الذات ضد أيما عمل اقتصاصيّ يقوم به أولئك الذين قـــد يكون في ميسورهم أن يحشدوا قوةً أعظم .

ولم يكن ليقوم في وهم فيلسوف من الفلاسفـــة ، أو كاهن من أهل الكشف،ان الشفاء والخلاص سوف ينبثقان من بلاد العرب .

ومع ذلك ، فذلك بالذات هو الذي حدث . لقـــد ارتفع في مكة ، بأمر إلهيّ ، صوتٌ منفرد يدعو الناس إلى عبادة الإله الواحد ويعلن ان الاستجابة لهذه الدعوة خليقٌ بها ان تكفل للجنس البشري الرفعة الحقيقية،والشرف الحقيقي ، والرخاء الحقيقي،والسعادة الحقيقية في الدارَيْن الحاضرة والآخرة . وكان ذلك الصوت هو صوت محمد نبيّ الاسلام .

وكان ذلك الصوت صرخةً في واد حقاً . لقـــد استُقبِلَ في استهزاء ، وسخرية، وتهكُّم . وههنا وههناك فقط كان نفرٌ من المستضعفين يستجيب للدعوة مطلقاً لفظة « لبَّيك » باسلة . وفي بطء ، في بطءٍ شديد ، تعاقبت

الاستجابات ، فاذا بالهزء والسخرية ينقلبان الى اضطهاد — اضطهاد مرير ، قـــاسٍ ، وحشيّ ، موصول . وكان السبب الأوحد في هـــذا الاضطهاد الوحشي المتطاول هو توكيد المسلمين انهم يؤمنون بالله الذي لا إله إلا هو ولا يشركون بعبادته احداً .

وكانت الهجرة من مكة هي وحدها السبيل الى الاحتفاظ بالإيمان بالله وتوطيد ذلك الايمان . فهاجر فريق من المسلمين ، ولكن خصومهم لحقوا بهم ، وسألوا الملك الـذي آواهم في دياره الواقعة عبر البحر الضيّق ان يأمرهم بالعودة الى بلادهم . وبعد ان استمع الملك للفريقين رفض الطلب .

وبعد ثلاث عشرة سنة من البعثة تلقى محمـــد الأمر الآلهي بمغادرة مكة . فهاجر منها خلسة ، وليس معه غير تابع مخلصٍ واحد ، هو ابو بكر ، فيما كانت تحـــاصر بيته عصبةٌ من اعدائه وطدت العزمَ على الفتك به تلك الليلة . وحين اكتشف قرشيو مكة فراره جدّوا في تعقّبه ولكنهم عجزوا عن اكتشاف المكان الذي اختبأ بـــه مع صاحبه . عندئذ أعلنت قريش استعدادها لتقـــديم مكافأة قدرها مائة ناقة لكل من يجيئها بمحمد حياً أو ميتاً .

وأخيراً اتخذ الرسول وأبو بكر سبيلهما الى المدينـــة . وهنـــا لم يُستقبل الرسولُ في غبطة وابتهاج من جانب

المسلمين ، وكانوا أقلية ، فحسب ، بل لقـد دُعي باتفاق أهل المدينة عـلى اختلاف طوائفهم ، الى النهوض بتبعات الحاكم الأعلى للمدينة ، بالإضافة إلى مهامّه كرسول. وهكذا أصبح رئيسَ دولةٍ أيضاً. حتى إذا علمت قريش بذلك ، وهي التي كانت قد وضعت لرأسه ثمناً، شرعت تنظم القبائل في سلسلةٍ من الأحلاف قُصِد بها الى تحطيمه وتحطيم أصحابه وكل من يجرؤ على مساعدتهم او تأييدهم. وعلى هذا النحو أعلِنت حالة حربٍ تحقيقاً لهـدف فظّ غليظ القلب .

لقد أضيفت ، الآن ، الى مسؤوليات الرسول وهمومه الكثيرة المتباينة تبعةُ الدفاع عن المدينة وحمايـــة المسلمين المتناثرين في أرجاء شبه الجزيرة كلها ، والمتعاظم عددهم في اطّراد . وسعى الرسول ، بدوره ، الى اكتساب صداقة القبائل ، وإلى عقد المعاهدات مع تلك التي يمكن إقناعهـا بالتعاون معه في تعزيز القانون والنظام وإشاعة الأمن والسلم. وهكذا وضعت الآساس للسِّلم الإسلامي . *Pax Islamiea* .

ونهض الرسول بالأعباء الجديدة التي فرضتها الأحداث عليه أحسن ما يكون النهوض . لقد أقام الدليل على أنه زعيم حكيم ، ورجل دولةٍ بعيد النظر ، وقـــائد شجاع ولكنه إنسانيّ ورحيم . كان عليه وعلى أصحابه ان يخوضوا

http://www.al-maktabeh.com

صراعاً غير متكافىء ، وأن يتحملوا ضروباً من الحرمان القاسي والآلام المريرة ، ولكن المرحلة الاولى من النضال، الذي بدأ في بادىء الأمر يائساً تماماً ، ما لبثت ان انتهت إلى خاتمة ظافرة عندما فتحت مكة أبوابها ، من غير ما إراقة دم ، لطريدها السابق ولأصحابه بعد ثماني سنوات انقضَيْن على فرارهم منها . وعندئذ شهـــد العالم أكرم وأفخم بادرة من بوادر العفو والغفران سجلها التاريخ .

وهكذا نلاحظ ان الاسلام قد وضع المبادىء الصحيحة لتنظيم جميع مظاهر العلاقات الانسانية والسلوك الانساني تنظيماً خيّراً . ليس هذا فحسب ، بل ان رسول الاسلام قد مُنح ، من طريق الرحمة الإلهية ، الفرصةَ لكي يُثبت في حياته إمكان تطبيق تلك المبادىء في نجاح . إن الاسلام لا يُبيح امتشاق الحسام إلا دفاعاً عن النفس ، وهو يحرم العدوان تحريماً صريحاً . والقرآن ينظر إلى الحرب بوصفها حريقـــاً يجب ان يطفأ بأسرع ما يمكن ، وكلما اندلعت ناره . إنه يستنكر ويحظّر جميع الأعمال الحربية الوحشية . ولقد سنَّ مجموعة من القواعـــد والعادات ابتغاء جَعْل الحرب انسانيةً .

وأجاز الله للمسلمين أن يقاتلوا دفاعاً عن حرية الضمير ولإقرار السلم والنظام . ولقد أثار نجاحهم ، على الرغم

من قسوة الظروف وعدم تكافؤ المعركة ، موجـــةٌ من الحسد والخوف ، بين القبائـــل العربيـــة أولاً ، ثم في الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية بعد ذلك . ان هاتـــين الدولتين الكبيرتين قد عجزتا عن الانسجام مع جمهورية الاسلام المتحدة ، التقدمية ، الديناميكيـة ، التي انبثقت انبثاقاً مفاجئاً . فقد كانت هذه الجمهورية تشكل تحدّياً لجميع القيم المتمثلة في هاتين الامبراطوريتين . ولقد استهوى الاسلامُ الشعوبَ المضطهَدة المستغَلّة التي كانت خاضعة لسلطانهما . وهكذا وقع ما لم يكن من وقوعه بـــدّ . ونشأ صدامٌ مهّد السبيل لانتشار الاسلام إلى تخوم العالم المعروف آنذاك .

وخلال مدة قصيرة إلى حدّ مدهش طُـــرد الظلام والاضطراب من مناطق مترامية الأطراف ، وأُقرّ النظام، ونبتت مختلف ضروب الأسس الخيِّرة ، وأقـــيم نظامٌ أخلاقيّ رفيع ، وبُدىء في نشر بركات المعرفة والثقافة والعلم على نطاق واسع . وعرف العالم ثورةً مذهلة . ولم تكن تلك الثورة مشهداً وهمياً ، ولم تكن انتفاضةً مفاجئة يعقبها سقوط أكثر إمعاناً في الفُجاءة . ولكنها كانت ظاهرةً تتميز بالقوة، والخيرية، والاستمرار . لقد حققت إلى درجة متفوقة حاجات وأشواق الجسم البشري ، والعقل البشري ،

والنفس البشرية . لقد غيّرت مجرى التـــاريخ الانساني . وفتحت، على مصاريعها ، أبواب التقدم في مختلف الاتجاهات. إن أثرها لا يزال ملحوظاً حتى يوم الناس هذا، ولعله اليوم أقوى وأوسع مما كان في ايما وقت من الأوقات منذ القرون الثلاثة او الاربعة الاولى من التاريخ الهجري .

ما سرّ هذه القوة وهذا الاستمرار ؟ ذلك هو السؤال الذي تجيبنا عنه الدكتورة فاغليري في كتابها البالغ النفاسة. ولقد اعتمدت في دراستها على علم غزير ، واخلاص عميق، وعلى مشاركة وجدانية وحسن تفهُّم . وهـذه المزايا هي التي جنّبتها مزالق الضلال وهدَتها الى الجواب الصحيح فلم تتردد في النصّ عليه بعبارات جلية واضحـــة . ان كتابها وجيز ، ولكنّ حقلاً واسعاً من حقـــول الدراسة ينطوي فيه . فضمن دائرة ضيقة وفّقت الدكتورة فاغليري الى استعراض مظاهر الاسلام الرئيسية استعراضاً مـــوجزاً بارعاً . ومن طريق تصوير الاسلام بمثل هذا التفهُّم الحسن لم تُسْدِ الدكتورة فاغليري يداً بيضاء الى الغرب وحده ، ولكنها اكتسبت اعجاب العالم الاسلامي ومودّته أيضاً .

وهذا لا يعني ان آراء المؤلفة سوف تلقى ، في مختلف النقاط التفصيلية ، تأييداً اجماعياً من طوائف المسلمين كافة. بيد ان مثل هذا الاختلاف في الفهم والتقـــدير لا ينقص

من قيمة الخدمة الجليلة التي أسدتها .

ولم تَغْفَل الدكتورة فاغليري ، فيما هي تبدي اعجابها بتعاليم الاسلام وحياة نبيّ الاسلام وشخصيته ، عن وضع اصبعها على احد الأسباب الرئيسية لتأخر المسلمين وتفسُّخ المجتمع الاسلامي في العصور الحديثة . ليس هذا فحسب ، بل لقد أشارت الى العلاج .

« فالى الكتاب العزيز الذي لم يحرّفه قط لا اصدقاؤه ولا اعداؤه ، لا المثقفون ولا الأميّون ، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان والذي لا يزال الى اليوم كعهده يوم أوحى الله به الى الرسول الأميّ البسيط ، آخر الأنبياء حَمَلة الشرائع — الى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون . حتى اذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب . »

وكيف لا يكون الأمر كذلك ؟ انه الوحي المباشر انزله الله على محمد . انه في معناه الحرفي كلمة الله . وهو كالكون — الذي هو من خلق الله ايضاً — ينعَمُ بصفة الحياة المستمرة . إنه يؤتي ثمراً صحياً حافظاً للحياة

http://www.al-maktabeh.com

في جميع العصور .

والدكتورة فاغليري تمتاز من بين علماء الغرب وباحثيه، بأنها هي وحدها التي تصف هذا العلاج للعلل المختلفات التي ألمّت بالمسلمين في العصر الحديث . وإنما قادتها إلى هذه النتيجة ، على نحو منطقي ومحتوم ، فكرتها الرئيسية التي تعتنق الكتابَ كله . ومع ذلك فانه برهان إضافيٌ على نفاذها العميق إلى الصفات المانحة للحياة ، التي يضفيها معين الهداية الشامل ، والدائم العذوبة ، الذي هو القرآن .

إن القرآن نفسه يقدم التشخيص نفسه ويصف العلاج نفسه . فقد جاء فيه مثلاً : « وَقَالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إنَّ قومي اتَّخَذُوا الْقُرآنَ مَهْجُوْراً . »*

إن التعامي عن الهداية التي ينطوي عليها القــرآن هو السبب ؛ وإن العودة إلى تلك الهداية هي الدواء .

والفضل في تعريف قراء الانكليزية بهذا الكتاب الصغير الفائق النفاسة إنما يرجــع إلى الدكتور آلدو كازيللي . والترجمة لم تكن في يوم من الأيام مهمة يسيرة . فحين تكون مصادر الموضوع مدوَّنة بلغة غير مألوفة ويكون على المرء ان ينقل أثرا مبنيّاً على هذه المصادر إلى لغة ثالثــة

---

* السورة ٢٥ (الفرقان) ، الآية ٣٠

فعندئذ تتضاعف مصاعب الترجمة إلى حد كبير . ان الانتقال من اصطلاح إلى اصطلاح يمثل وحدَهُ مشكلة ضخمة . وفي هذه الحال التي بين أيدينا نجد أن الأصل الايطالي ، الذي يعالج في شكلٍ مكثفٍ موضوعاتٍ هي من أكثر المباحث خطورة ودقة ، تقتضي ترجمته مقداراً معيّناً من التوسيع التفسيري مع الاحتفاظ بالأمانة الصارمة للنصّ . ولقد حقق الدكتور كازيلي هذه المهمة المزدوجة في نجاح ممتاز .

ان السياسيين ورجال الدولة في مختلف أرجاء العالم ليبحثون اليوم ، في جَهْد جاهد ، عن وسائل لتعزيز التفاهم الدولي . وأهم مشكلة تواجههم هي ما يدعونه النزاع الايديولوجيّ . إن أربعمئة مليون نسمة تقريباً ، منتشرين من مراكش إلى الصين والفيلبين ، يعتبرون ان القيم الاسلامية هي أساس الايديولوجية التي يتوقون إلى تعزيزها وتبنّيها . إنهم مقتنعون بأن هذه القيم تقدّم أكثر القواعد خيريّةً لحياةٍ سليمة ، رخيّة ، تقدمية ، في جميع المجالات .

ان أجزاء كبيرة من هذه الأمة الاسلامية قد تحررت منذ قريب ، أو هي في سبيل التحرر ، من حال من التبعية السياسية كانت خلالها خاضعة لسلطان هذه الدولة أو تلك من الدول الأوروبية الاستعمارية . إن هؤلاء المسلمين

هم اليوم في مركزٍ يساعدهم عـــلى مراجعة الوضع الذي يجدون أنفسهم فيه ، داخلياً ودولياً ، وإجراء التعديلات الضرورية . وما دام السلام الدولي يتأرجح على هذا النحو المخيف القلق فإن الشعوب الاسلامية قد تكون في مركز يساعدها على الاحتفاظ بالسلم وتدعيمه . وقد تثبت الايام ان مساهمة المسلمين هـذه في خدمة السلم مساهمةٌ حاسمة . وكل يوم ينقضي يؤكد أهميـــةَ هذا الإسهام المتعاظمة ، وبالتالي الحاجةَ الحيوية الى فهمٍ وتقدير عاطفَيْن للمصدر الذي يصوغ ، في آخر الأمر ، تفكيرهم ، وسياساتهم ، وأعمالهم .

لقد أظهر البـــاحثون والكتّاب الغربيون في السنوات الأخيرة وعياً متزايداً للحاجة الى الفهم والتقدير والمشاركة الوجدانيـــة في مواقفهم من الاسلام . لكن هذه الاهواء والتحاملات التي حُضِنَتْ طوال قرون متعددة لن يكون من الميسور التغلب عليها في فترة قصيرة . إننـا في حاجة الى جهد شاق موصول لكي نستبدل بها نزعة من التقدير الموضوعي .

وصعوبة أخرى هي ان الغرب كان شديـــد الميل الى ان يعزو أخطاء المسلمين المعاصرين ومواطن الضعف عندهم الى تعاليم الاسلام وأثره في نفوسهم ، لا إلى جهل جماهير

المسلمين للقيم الاسلامية الحقيقية وإهمالها إياها .

وفي هذه النواحي كلها يسدُّ كتيِّب الدكتورة فاغليري حاجة ملحّة . وفي ميسور المسلمين وغير المسلمين على السواء ان يفوزوا من مطالعته بفائدة عظيمة . ولا ريب في أن قراء الانكليزية سوف يشكرون ايضاً للدكتور كازيللي جهده المحمود في ترجمة الكتاب الى الانكليزية .

إن كتاب « دفاع عن الاسلام » يجب ان يحظى بانتشار كبير . ولسوف يثبت انه ذو قيمة بالغة جداً في تعزيز التفاهم الوديّ بين المسلمين والغربيين ، وبذلك يدعم السلم الدولي .

ان الاسلام عالميّ في دعوته . والقيم التي ينادي بها الاسلام ، لا بد ان تلقى ترحيباً بهيجاً في الغرب بمجرد فهمه اياها فهماً حسناً . ولسوف يُهلّل لكتاب الدكتورة فاغليري بوصفه واحداً من الرواد الكبار في تمهيد السبيل نحو ذلك الفهم .

ظفر الله خان

لاهاى

٢٥ شباط ، فبراير ، ١٩٥٧

الفصل الأول

سرعة انتشار الإسلام

http://www.al-maktabeh.com

نشأ الاسلام ، مثل ينبوع من الماء الصافي النمير ، وسط شعب همجيّ يحيا في بلاد منعزلة جرداء بعيدة عن ملتقى طرق الحضارة والفكر الانساني. وكان ذلك الينبوع غزيراً إلى درجة جعلته يتحول ، وشيكاً ، إلى جدول ، ثم إلى نهر، ليفيض آخر الأمر فتتفرّع منه آلاف القنوات تتدفق في البلاد . وفي تلك المواطن التي ذاق فيها القوم طعم تلك المياه الأعجوبية سُوّيت المنازعات وجُمع شمل الجماعات المتناحرة . وبدلاً من الثأر الذي كان هو القانون الأعلى والذي كان يشدّ العشائر المتحدرة من أصل واحد في رابطة متينة ، ظهرت عاطفة جديدة، هي عاطفة الأخوة بين أناس تشدّ بعضهم إلى بعض مُثُل عليا مشتركة من الأخلاق والدين . وما ان أمسى هذا الينبوع نهراً لا سبيل إلى مقاومته حتى طوّق تياره الصافي العنيف ممالك جبارة تمثّل حضارات قديمة . وقبل ان توفق شعوب تلك الممالك إلى إدراك مغزى الحدث الحقيقي ، داهمها ذلك التيار ، قاهراً البلاد ، محطماً الحواجز ، موقظـــاً بصخبه عقولاً

وسنّى ، منشئاً من أكبر عدد من الشعوب المتباينة مجتمعاً موحداً .

إن التاريخ لم يشهد ، قطّ ، ظاهرةً مثل هذه من قبل . ومن العسير على المرء أن يقدّر السرعة التي حقّق بها الاسلامُ فتوحه، والتي تحوّل بها من دين يعتنقه بضعة نفرٍ من المتحمسين إلى دين يؤمن به ملايين الناس . ولا يزالُ العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكّنت جماعة من المحاربين الجفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة ، والثروة، والخبرة ، والقدرة على شنّ الحرب . ومن أدعى الأمور إلى الدهش ان نلاحظ كيف استطـــاع اولئك الناس ان يحتلوا تلك المناطق كلها ، وان يُثبّتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل حتى الحروب المتعاقبة قرناً بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها ، وكيف استطاعوا ان يُلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليـــا ، وان يحتفظوا بحيوية نابضة لم تعرفها الأديان الأخرى حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمـــد ، وان يُفرغوا في عقول أتباعهم ، على الرغم من انتسابهم إلى عصر وثقافة مختلفين كل الاختلاف عن عصر المسلمين الأولين وثقافتهم ، إيماناً متقداً لا يحجم عن القيام بأيما تضحية مهما غَلَتْ .

ان الاسلام الذي كان مَعْنيّاً خلال الفترة المكيّة من

رسالة محمد بالدعوة الحارّة الى التوحيد قبـــل كل شيء أصبح بعد هجرة الرسول وأتباعه الى المدينة قوةً سياسية عارمة . ولقد اضطر محمد ــ الصابر على سخرية قريش واضطهادها ــ الى ان يمتشق الحسام بعـــد ان فوّض الله اليه أمر الدفاع عن نفسه وردّ كيد أعدائه ؛ ومن ذلك الحين لم يعطه أولئك الاعداء أيما مهلة تمكّنه من إعـــادة الحسام الى غمده .

ولم تنقضِ غير سنتين على ذلك اليوم التـــاريخي الذي أجاز الله فيه للمسلمين المضطهدين ان يقاوموا القوة بالقوة، والذي كان استهلالاً لصولة الاسلام وبداءةً لثورة اجتماعية وسياسية حقيقية ، حتى كسب اتبـــاع محمد أول معركة من معاركهم ضد شعب مكة . ومن ذلك الحين، وباستثناء بعض النكسات القليلة والتي ربما كانت محتومة ، شهـــد الاسلام سلسلة موصولةً من المواقع ، والمعارك والفتـــوح في الحقلين الديني والسياسي معاً . وفي السنة الثامنة تُوّجت هـــذه كلها بحدث ذي أهمية فائقة ، أعني فتح مكة نفسها . *

وغادر المحاربون العرب صحاراهم واندفعوا عـــبر

---

* منذ أقدم العصور وعادة القيام بالغـــارات أو الغزوات تعتبر شكلا مشروعاً من أشكال الحرب في بلاد العرب . وينبغي أن لا نحكم عليها بمقياس المفاهيم السائدة في المجتمع الاوروبـي الحديث .

الحدود نحو فلسطين ثم ابعــدَ الى الشمال الى سورية . وكانت حملةً كبيرة على سورية ، التي خيف انطلاق الهجوم التالي منها ، رهنَ الإعداد عندما اسكت الموت الى الأبد صوت النبي الذي كان قد احدث هــذه الهزة العميقة في تلك القلوب كلها ، والذي كان مقدّراً لــه ان يستهوي عما قريب شعوباً اخرى تقيم في مواطن اكثر امعاناً في البعد . وكان ذلك في السنة الحادية عشرة من الهجرة .

كانت بلاد العرب قد توحدت الآن . لقــد أخفقت الاعمال التمزيقية التي قام بها البدو محاولين احياء الحالة الفوضوية التي كانت سائدة في الجاهلية ، ــ اخفقت بعد ان تصدّت حكومة المدينة لاولئك البدو فهزمتهم . وفي امكان المرء ان يقول ان اولى معجزات الدين الجديد كانت هذه : ان البلد الذي ظل طوال قرون وقرون ميــداناً لمعارك موصولة يقتتل فيها الأخوة قد عرف السلام والأمن آخر الأمر !

انَّ الآية القرآنية التي تشير الى عالمية الاسلام بوصفه الدين الذي انزله الله على نبيّه « رحمةً للعــالمين » * هي

* السورة ٢١ (الانبياء) الآية ١٠٧ .

http://www.al-maktabeh.com

نداء مباشر للعالم كله ..* وهذا دليلٌ ساطـع على أن الرسول شعـرَ في يقينٍ كليّ أن رسالته مقدَّر لهـا ان تَعْدُوَ حدودَ الامة العربية وان عليه ان يُبلغ «الكلمة» الجديدة الى شعوب تنتسب الى أجناس مختلفة ، وتتكلم لغات مختلفة . وثمة دليلٌ آخر على هذا الشعور نفسه في الحديث النبوي الذي يشير الى انه كان من عادة محمد ان يقول: « بُعثتُ الى كلّ أحمرَ واسوَدَ . »او ان يستعمل تعابير اخرى مماثلة . بل اننا نجد دليلاً اضافياً في الاشارة الى الفتوح المستقبلة وراء تخوم بلاد العرب ، وأخيراً في الاتصالات التي بدأ محمد نفسه القيام بها مع البلدان الأجنبية.

انّ الخلفاء الذين خلفوا محمداً كرؤساء للدولة الاسلامية سلكوا ، بوصفهم المفسّرين الامناء لتفكيره ، السبيل التي اختطّها ، وحملوا راية الاسلام الى قلب آسية في الشرق والى المحيط الاطلسي في الغرب .

كانت ست عشرة سنة قد انقضت عـلى الهجرة**

---

* انظر السورة ١٢ (يوسف) الآية ١٠٤ ؛ السورة ٣٨ (ص) الآية ٨٧ ؛ السورة ٦٨ (القلم) الآية ٥٢ ؛ السورة ٨١ (التكوير) الآية ٢٧ ؛ حيث تفسر لفظة « العالمين » بالبشرية بمعناها الاوسع .

** هجرة الرسول محمد من مكة (الى المدينة) في ٢٠ حزيران (يونيو) عام ٦٢٢ . وإنما يبدأ التقويم الاسلامي من تلك الحادثة .

عندما انهارت الامبراطورية الفارسية نهائياً — وهي التي ظلت الحرب سجالاً بينها وبين الامبراطورية البيزنطية من غير ان تدمّر احداهما الاخرى — وذلك في معركة القادسية .

وقد اخذ الملك الفارّ يتنقّل من مقاطعة الى مقاطعة حتى انتهى الى اقصى حدود الامبراطورية ، ومات في السنة الحادية والثلاثين للهجرة . وهكذا اصبحت الامبراطورية الفارسية ارضاً عربية .

وفي غضون ذلك أكمل احتلال فلسطين وسورية ، ويمكن القول ان هذين البلدين سقطا نهائياً في أيدي العرب في السنة التاسعة عشرة من الهجرة . وفي السنة الحادية والعشرين اندفع الجيش المظفّر نحو الموصل ، في قلب ارمينية . وبنى العرب اسطولاً . وبدأوا يشنون حملات بحْرية سنوية كانت تقلع من ثغور الشام الى آسية الصغرى لنقل الحرب الى عاصمة الامبراطورية البيزنطية نفسها . وفي السنة الثامنة عشرة برز اول جيش عربي في مصر ؛ وفي السنة الحادية والعشرين استسلمت الاسكندرية ؛ وفي السنة الثالثة والعشرين فُتحت طرابلس ؛ وفي السنة السابعة والعشرين وُجّهت اول حملة هامة على جنوبي تونس .

ولكن لماذا نمضي في تعداد هذه التواريخ ؟ لقد تحرك الجيش في سرعة ، وتتابعت المعارك ، وبدا النجاح وكأنه

قد جعل لأقدام الفاتحين اجنحةً : فقد تردّدت في خلافة ابـي بكر (١٣ ب . هـ .) وعمر (٢٣ ب . هـ .) وعثمان (٣٥ ب . هـ .) اصداء الانبـــاء البهيجة الحاملة بشائر الانتصارات الرائعة . وقد أتبِعَتْ هذه الانتصارات بتنظيم البلدان المفتوحة وتوطيد اقدام العرب فيها . ولم يكن هذا الصنيع اقلّ اعجازاً من الفتوح نفسها .

لقد قُوّضت حضارتان وزُعزع دينان ، فاذا بفيضٍ جديد من حياة عارمة يتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى . لقد تجلى امام عيون العالم المندهش دينٌ جديد ، بسيط ، سهل ، يخاطب القلب والعقل جميعاً، واقيم شكل جديد من اشكال الحكومة كان اسمى الى حدّ بعيد — في خصائصه ومبادئه الأخلاقية — من تلك المعروفـة في ذلك العصر . وبدأ الذهب الذي كان مخبوءاً في صناديق السَّراة ينتقل الى ايدي الفقراء ، مستهلاً نظاماً من التداول السليم كرّةً اخرى . وفي ظل من حكومة تسيّرها مثلٌ عليـــا ديموقراطية امينةٌ وجد الرجال المثقفون،البارعون، الاذكياء تشجيعاً من النظام الجديـــد ، فاستطاعوا ان يبلغوا أسمى المناصب العامة . ومن الممكن القول ، في اطمئنان ، ان البلاد المفتوحة عرفت — على الرغم من بعض الحـــالات المحتومة النادرة التي تجاوز فيها الجند حدودهم اثناء الفتح —

عهداً من الرخاء والازدهار ، وشهدت غنىً لم تشهده آسية منذ قرون طويلة . والى هذا ، فقد نعمتْ حياةُ الشعوب المغلوبة وحقوقها المدنية وأموالها بدرجة من الحماية تقارب تلك التي نعِمَ بها المسلمون انفسهم .

وأزعج هذا التحوّل السياسيّ والديني العميق طائفة من الناس فراحوا يتساءلون ما الذي ادّى الى حدوثه ؟ ولكن كثيراً منهم كانوا عُمْياً ، او كانوا يغمضون أعينهم عمداً هائمين طويلاً وعلى نحو يائس في متاهة التخمينات الخاطئة. انهم لم يستطيعوا ان يدركوا ان القوة الالهية وحدها كان في ميسورها ان تقدِّم الحافز الاول لمثل هـــذه الحركة الواسعة . انهم لم يريدوا ان يعتقدوا ان حكمة الله وحدها كانت مسؤولة عن رسالة محمد ، آخر الانبياء الكبار حَمَلة الشرائع ، والنبي الذي ختم سلسلتهم الى الابد . ان مثل هذه الرسالة كان يتعيّن عليها ان تكون رسالة عالميـــة لجميع افراد الجنس البشري من غير تمييز وعلى اختلاف الجنسيات والاوطان والأعراق . لقد كان اولئك إمـــا عُمياً وإما غير راغبين في ان يَرَوا . لقـــد راح اولئك الناس يشيعون ان جوهر الإسلام كان العدوان العنيف . لقد زعموا انه كان ديناً فُرض بالسيف ؛ ولقد اتهموه باللاتسامح . بل لقد اتهموا محمداً نفسه بالكذب ، وبالقسوة،

وبالشبق . لقد حاولوا ان يحطموا عمله الرائع في الاصلاح الاجتماعي والدينيّ . وحاولوا اظهار اخلاص صحابته وتابعيه وتفانيهم بمظهر المصلحة الشخصية ، وصوّروهم وكأنهم اناس لا تعمر نفوسهم غير الرغبـــة في الثروة والنجاح الدنيوي .

ان علينا ، بادىء ذي بدء ، ان ننظر في تهمة «روح الاسلام العدوانية » هذه . فإذا كانوا يقصدون بهـــا ان محمداً ، على خلاف مؤسسي الأديان الأخرى ، قد امتشق حسامه ونظّم حملات عسكرية متطلعاً الى نجاحات وفتوح اضافية بعيدة ، وان اتباعه حذَوا في ذلك حذوه فعندئذ يتعيّن علينا ان نقول ان هذا صحيح ؛ ولكن يتعيّن علينا أيضاً ان نبحث ، بالعقل المنفتح نفسه ، عن السبب الذي قضَى بهذا . اما اذا زعموا ان الحرب التدميرية كانت هي السبيل الضرورية لفرض العقيدة وان الحاجـــة الى الفتوح كانت جزءاً اساسياً من طبيعة الدين الاسلامي نفسها فعندئذ يتعيّن علينا ان نرفض الاتهام لأن في استطاعتنا ان نقيم الدليل ، استناداً الى القرآن وسنن النبي نفسه ، على ان ذلك بهتانٌ كامل .

كان من دأب الرسول ، بوصفه نبياً موحى اليه ، ان يخاطب المكيين ويحدّثهم عن رؤاه السماوية التي طلبت اليه

ان يصبر على الأذى والتي أثارت سخط قريش . حتى اذا اتخذ القرارَ العسيرَ بالهجرة الى المدينة ، وبذلك اصبح محور صراعٍ سياسيّ ، كان عليه ان يختار بين الموت على نحو مُذِلّ ، وهو أمرٌ لا يتفق مع رغبات الله ، وبين القتال لانقاذ نفسه وجماعته الصغيرة من الهلاك . كان الصراع يدور بين الفوضوية ، ومادية الوثنيين المتبربرين ، ومخاصمات وأكاذيب اليهود غير المتسامحين على الرغم من تحضّرهم البعيد ، من ناحية ، وبين مثل أعلى رفيع في التجـــدد الديني والاجتماعي ، من ناحية ثانية .

ذلك كان المثل الأعلى الذي أراد محمد ان يحققه بأيّ ثمن ، فقاتل قتالَ الرجل الوديع ضد الغطرسة والطغيان ، او قل قتالَ الرجل الذي لا يرغب في الحـــرب ولكنه مُكرَه على منازلة اولئك الذين أصرّوا على تدميره بالقوة . وانما نهض بهذه المهمة وانصاره قلةٌ قليلة ، ولكنه نهض بها واثقاً من انه كان يمهد السبيل لايصال الحقيقة الى كثير من النفوس ، ومن انه كان مكلّفاً بأن يهدي الناس سواء السبيل في غمرة الظلام . وكان لدن وصوله الى المدينة قد مدّ يد الصداقـــة ، اولَ ما مدّها ، الى اليهود الذين مثّلوا في هذه المدينة جماعةً غنية مزدهرة . لقـــد دعاهم الى التعاون الصادق في وحدة سياســـة واجتماعية .

http://www.al-maktabeh.com

ولكنه حين أدرك أنهم معادون له عداءً مطلقاً وأنهم مصرون على اتباع سبيلٍ خاطئةٍ غادرة تعيّن عليه ان يقاتلهم ويعاقبهم . كانت الحرب ضد الأعداء الخارجيين ضرورة من ضرورات العصر . فلم يكن في ميسور ايما عربي من الصحراء ان يكيّف نفسه لحالة من السلم الدائم بعد ان تعوّد طوال قرون بكاملها ان يخوض غمار الحرب كعمل سويٍّ . وهكذا ، ما إن سوّى محمد النزاعات الداخلية حتى اضطر الى مواجهة عدوان قريش وتلك القبائل التي لم توقع معه ايما معاهدة . ولكن الحرب بمخاطرها وانتصاراتها العسكرية ساعدت على جعل الجماعة الجديدة كالبنيان المرصوص . لقد قَدَّمَتْ وسيلةَ البقاء الضرورية للرفاق الذين هاجروا مع الرسول من مكة الى المدينة . لقد أرضتْ ميول البدو الطبيعية ؛ وفي محيطٍ متبربر جعلته الأخطار والخسارة والمغامرات جذاباً ، مثّلت واسطة لصيانة الحياة وتيسير تحقيق رسالة النبي . لقد كانت الحرب دائماً وسيلة لحماية الدين الحديد وتعظيمه ، لا غاية في ذات نفسها . كانت دفاعاً ضرورياً ، لا عدواناً جائراً .

ولقد عبّر القرآن عن هذه الفكرة بأجلى بيان :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين . »*

* السورة ٢ (البقرة) الآية ١٩٠

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكـــون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا عـــلى الظالمين » .

ان تجريد الفتوح الاسلامية من مقدار معين من روح العدوان زعم لا يقول به الا من جهِل الطبيعة البشريـة جهلاً كاملاً . ولكن هل من العدل حقاً ان نحمّل الدين الاسلامي مسؤولية ذلك ؟ وأي قوة عـلى سطح الارض كان في ميسورها ان توقف سَورة المسلمين وتبقيهم ضمن حدود القانون بعد ان اكتشفوا قوّتهم وضعف اعدائهم ؟ ومع ذلك ، فقد كان العرب المنتصرون مستعدين دائمـاً — حتى وهم في أوج قوّتهم وانتصارهم — لأن يقولـوا لاعدائهم : « ألقوا السلاح وادفعوا جزيـةً يسيرة نُسبغ عليكم حماية كاملة . او اتخذوا الاسلام ديناً وادخلـوا في ملّتنا تتمتعوا بالحقوق نفسها التي نتمتع بها نحن . »

واذا نظرنا الى مـا أوحي الى محمـد او الى الفتوح الاسلامية الاولى سهُل علينا ان نرى مـدى الخطأ الذي ينطوي عليه الاتهام القائل بأن الاسلام فُرض بالسيف وان انتشاره السريع الواسع لا يمكن تفسيره الا بهذه الوسيلة . يقول القرآن :

« السورة ٢ (البقرة) الآية ١٩٣

« لا اكراه في الدين ، قد تبـّين الرشد من الغيّ ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعـــروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم . »*

ويقول :

« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . »**

وكان محمد المتمسك دائماً بهذه المبادىء الإلهية، شديد التسامح ، وبخاصة نحو أتباع الاديان الموحـّدة . لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين ، مصطنعاً الأناة دائماً اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يُتم عمله الهادف الى هدايتهم واخراجهم من الظلام الى النور . لقد اكتفى من البدو بما نستطيع ان ندعوه دخولاً رسمياً خالصاً في الدين لانه عرف ان أبناء الصحراء هؤلاء لا يطيقون، بالفطرة ، أيما صدّ او كبحٍ مهما يكن . لقد عرف جيداً ان الله لا بد ان يدخل آخر الأمر الى القلب البشريّ .

لقد قال ذات يوم لأحد صحابته : « لماذا تريد ان

---

* السورة ٢ (البقرة) الآية ٢٥٦

** السورة ١٨ (الكهف) الآية ٢٩

تكره الناس على الايمان ، والايمان لا يمكن ان يأتي الا من عند الله ؟ » ويوم نزلت الآيات التي تعالج موضوع التسامح ، لم يكن الرسول رجلاً حالماً تتبعه مجموعة صغيرة من الحالمين مثله ، ولم يكن فيلسوفاً مشلولاً بوعيه لعدد متباين من القوى ، ولكنه كان رجلاً في اوج قوته ، رجلاً يرئس دولة رفيعة التنظيم ، ويقود جنوداً صالحين مطيعين كان في ميسوره ان يستخدمهـــم ضد اي امرىء يقع اختياره عليه .

ان تاريخ السنوات الأولى من الاسلام يقدم الينا عدداً من الأمثلة على التسامح الديني الذي أظهره الخلفاء الأولون نحو أتباع الديانات الموحِّدة . فكـــما أعطى الرسول نفسه ضمانات الى نصارى نجران بأن مؤسساتهم المسيحية سوف تصان ، وأصدر أمره الى قائد احدى الحملات العسكرية الى اليمن بأن لا يؤذي اياً يهودي في يهوديته ، فكذلك وجّه الخلفاء الى قادتهم العسكريين تعليمات مماثـــلة حول مسلك جيوشهم في الحرب . ولقـــد حذا هؤلاء القادة المظفرون حذو محمد في عقد الاتفاقات مع الشعوب المغلوبة . وبفضل هذه الاتفاقات منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة ، وتقاليدها القديمة ، شرط ان يدفع الذين لا يرتضون الاسلام ديناً ضريبة عادلة الى الحكومة تُعرف

http://www.al-maktabeh.com

بالجزية . لقد كانت هذه الضريبة أخفّ من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها الى حكومتهم نفسها . ومقابل ذلك ، مُنح اولئك الرعايا (المعروفون بأهل الذمة)حماية لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الاسلامية نفسها . ولما كانت أعمال الرسول والخلفاء الراشدين قد أصبحت في ما بعد قانوناً يتّبعه المسلمون فليس من الغلوّ ان نصرّ على ان الاسلام لم يكتف بالدعوة الى التسامح الديني ، بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءاً من شريعته الدينية .

وكان المسلمون لا يكادون يعقدون الاتفاقات مع الشعوب حتى يتركوا لها حرية المعتقد ، وحتى يحجموا عن اكراه احدٍ من أبنائها على الدخول في الدين الجديد . والجيوش الاسلامية ما كانت تُتبَعُ بحشد من المبشرين الملحاحين غير المرغوب فيهم ، وما كانت تضع المبشرين في مراكز محاطة بضروب الامتياز لكي ينشروا عقيدتهم أو يدافعوا عنها . ليس هذا فحسب . بل لقد فرض المسلمون ، في فترة من الفترات ،على كل راغب في الدخول في الاسلام ان يسلك مسلكاً لا يساعد من غير ريب على تيسير انتشار الاسلام . ذلك انهم طلبوا الى اولئك الراغبين في اعتناق الدين الجديد ان يمثلوا امام القاضي ويعلنوا ان اسلامهم

لم يكن نتيجة لأي ضغط ، وانهم لا يهدفون من وراء ذلك الى اي كسب دنيوي . وفي عهد الامويين ذهب رجال الدول الى حد القيام بمحاولة لوقف تيار الدخول في الدين ، هذا التيار الذي كان مُربكاً بعض الشيء من وجهة النظر الاقتصادية لأن خسارة الجزية كانت قد أدت الى نقص في مورد الضرائب . والواقع ان اليهود والنصارى لم يُمنحوا حرية المعتقد الديني فحسب ، بل عُهد اليهم في تولي المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة بحيث تلفت انتباه الحاكمين . اما بعض القيود المفروضة على النصارى واليهود في مسألة الحرية الدينية ، وبعض القوانين التي قضت بأن يحمل اليهود أو المسيحيون شارات منظورة تميِّزهم من غيرهم ، وتحريم بناء كنائس جديدة او ترميم الكنائس القديمة — اما هذا كله فلم يحدث الا في العهود المتأخرة التي اتسمت بالتعصب ؛ عندما عرف الاسلام نزعة من التطرُّف في التعبُّد حملتها اليه شعوب غير عربية .

وليس في امكان المرء ان يُنكر ، طبعاً ، ان المسلمين انفسهم، شأن أتباع الديانات الأخرى كلها ؛ قد تكشَّفوا عن شيء من لهب الانفعال ذاك الذي يُذكي الحقد ويُسيل

الدم . ولكنّ علينا ان نـدرك ان السبب الاول في ذاك اللهب كامنٌ في بعض الوقائع الغريبة عن الدين الاسلامي نفسه ، وان الاسلام ساعد على إخماده لكي يُفسح المجال للاعتدال والخير ـ ويتعيّن علينا ايضاً ان نسلّم بأن الاسلام لم يَعْدَمْ نصيبه من الخلاف بين مختلف الفرق الاسلامية، وهو خلاف حمل في آثاره اضطهادات لم يكن منها بدّ . ولكن التفسير الرئيسي لهذه الظاهرة ايضاً ينبغي أن يُبحث عنه في المنافسات السياسية او المنازعات الناشبة بين الأسر الحاكمة . لأن الاسلام في ذات نفسه لا يقدّم ايّ مبرّر لها .

وحاول اقوى اعداء الاسلام ، وقد اعماهم الحقد ، ان يَرموا نبيَّ الله ببعض التُّهم المفتراة . لقد نسوا ان محمداً كان قبل ان يستهلّ رسالته موضع الاجلال العظيم من مواطنيه بسبب امانته وطهارة حياته . ومن عجب ان هؤلاء الناس لا يجشّمون انفسهم عناء التساؤل كيف جاز ان يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين ، في بعض آيات القرآن اللاسعة ، بنار الجحيم الابدية لو كان هو قبل ذلك رجلاً كذّاباً ؟ كيف جرؤ على التبشير ، على الرغم من اهانات مواطنيه ، اذا لم يكن ثمة قوىً داخلية تحثّه ، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة ، حثّاً موصولاً ؟

كيف استطاع ان يستهلّ صراعاً كان يبدو يائساً ؟ كيف وُفق الى أن يواصل هذا الصراع اكثر من عشر سنوات، في مكة ، في نجاح قليل جداً وفي أحزان لا تُحصى، اذا لم يكن مؤمناً ايماناً عميقاً بصدق رسالته ؟ كيف جاز ان يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والاذكياء ، وان يؤازروه ، ويدخلوا في الدين الجديد ويشدّوا انفسهم بالتالي الى مجتمع مؤلف في كثرته من الارقاء، والعُتَقاء، والفقراء المعدمين اذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة الى ان نقول اكثر من ذلك ، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الاجماع على ان صدق محمد كان عميقاً وأكيداً .

اما تهمة القسوة فالردّ عليها يسير . إن محمداً ، بوصفه رئيساً لدولة ، والمدافع عن حياة شعبه وحريته ، قد عاقب باسم العدالة بعض الافراد المتهمين بجرائم معينة عقاباً قاسياً ، وإن مسلكه هذا ينبغي ان يُنظر اليه على ضوء عصره ، وعلى ضوء المجتمع الجافي المتبربر الذي عاش فيه . اما محمد ، بوصفه المبشر بدين الله ، فكان لطيفاً ورحيماً حتى مع اعدائه الشخصيين . لقد امتزجت في ذات نفسه العدالة والرحمة ، وهما اثنتان من أنبل الصفات التي يستطيع العقل البشري تصوُّرها . وليس من العسير

تأييد هذا بكثير من الأمثلة المنثورة في سيرته . قال أحد الذين ترجموا له : « لقد جعل الحربَ ــ تلك الضرورة الرهيبة في الحياة الانسانية ــ أقل وحشيةً . » وقال آخر إن الرسول كان من دأبه ان يوصي جنوده بقوله : « لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة . »

وفي فصل تالٍ سننظر في تهمة الشبق ، وسنُظهر أيّ مبلغ من النبل والرفعة انطوى عليه عملُ هذا المصلح الذي استطاع في سنوات قليلة أن يحوّل شعباً وثنياً متبربراً الى جماعة موحّدة تعمرُ صدرها أسمى العواطف والحوافز الأخلاقية . ولسوف تدحض الوقائعُ وجهة نظر أولئك الذين لا يرون في الكثرة الكاثرة من أتباع محمد غير مضاربين وانانيين ولصوص جشعين انضموا اليه بدافع من رغبتهم في الغنيمة والفتح . ولو اننا أردنا تعداد الشواهد التي تُثبت حَميّة كثرة أتباعه الرائعة ، ورأفتهم التي لا حدّ لها ، وغيرَتهم المتقدة اذن لاحتجنا الى صفحات كثيرات . فحسبنا أن نقول ان هناك أنواعاً من الصراع لا يمكن الفوز فيها ما لم يكن ثمة عاملٌ أخلاقي بالغ القوة ، ايمانٌ دائمٌ بعدالة القضية ، ولقد كان الاسلام يملك هذا العامل .

أما وقد ناقشنا ، بايجاز ، تلك الاتهامات التي تُوَجَّه عادةً الى الاسلام فلنواجِهْ هـــذا السؤال : كيف نفسّر مواصلة الاسلام ــ على الرغم من الحرية الدينية الممنوحة في البلدان الاسلامية للمواطنين غير المسلمين ومن فقـدان ايما منظمة تبشيرية حقيقية ــ تقدُّمَهُ الحثيث في آسيـــة وافريقية في وجه الانحطاط العام الذي أصاب الفكرة الدينية في السنوات الأخيرة ؟ ان أحداً لا يستطيع اليوم ان يزعم ان سيف الفاتح هو الذي يمهّد السبيل أمام الاسلام . على العكس ، ففي الأصقاع الـــتي كانت في يوم من الايام دولاً اسلامية تولتْ مقاليدَ السلطة حكوماتٌ جديـــدة تنتسب الى أديان أخرى ، وعملتْ في أوساط المسلمـــين طوال فتراتٍ عديدة منظماتٌ تبشيرية قويـة ، ومع ذلك فإن هذه الحكومات وتلك المنظمات لم توفق الى زحزحـــة الاسلام وإقصائه عن حياة الشعوب الاسلامية .

أية قوة اعجوبية تكمن في هذا الدين ؟ أية قوة داخلية من قوى الاقناع تنصهر بـه ؟ من أيّ غور سحيق من أغوار النفس الانسانية ينتزع نداؤه استجابةً مُزَلزِلة ؟

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثاني

بساطة العقيدة الإسلامية

يوجّه الاسلام الى الفرد دعوة مزدوجة : ان يؤمن بأن لا إله الا الله ، وبأن محمداً رسول الله .

ولقد دعا الرسول العربي ، بصوتٍ مُلْهَم باتصال عميق بربّهِ ــ دعا عبدةَ الاوثان وأتباعَ نصرانية ويهودية محرّفتين الى اصفى عقيدة توحيدية . وارتضى ان يخوض صراعاً مكشوفاً مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء الى ان يُشرك بالخالق آلهةً اخرى .

«قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . » *

ولم يلجأ الرسول ، لكي يقود الناس الى الايمان بألٰه واحد ، الى استهوائهم بروايات عن أحداث تنحرف عن سبيل الطبيعة السّويّ ــ تلك الأحداث التي تدعى معجزات. ولم يُكرههم على التزام السكينة باصطناع التهديدات السماوية التي لا تؤدي الاّ الى تعطيل قدرة الانسان على التفكير . بل لقد دعاهم ببساطة ، ومن غير ان يكلّفهم الابتعاد

* السورة ١١٢ (الاخلاص) الآية ١ – ٤

عن عالم الحقيقة ، الى التفكير في الكون وسُنَنِه . وإذْ كان واثقاً من ان كل عاقل لا بدَّ ان يؤمن آخر الأمر بالإله الواحد الواجب الوجود،فقد اكتفى بدعوة الناس الى ان يقرأوا كتاب الحياة . وينصّ كل من محمد عبسده وامير عليّ على ان محمداً كان يكتفي بمخاطبة ضمير الفَرد ذاتِه ، وعقل الانسان الحدسيّ .

« وإلٰهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كلّ دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون . ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . » *

---

* السورة ٢ (البقرة) الآيات ١٦٣ – ١٦٥

http://www.al-maktabeh.com

وهناك غيرُ مقطع في القرآن تدعو القارىء الى التأمل في البرهان الذي تقدمه الطبيعة اليه . ولسوف اجتزىء هنا بنقل بعض الآيات من سورة الرحمن :

« والأرضَ وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان . خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأي آلاء ربكما تكذبان. ربّ المشرقين ورب المغربين ، فبأي آلاء ربكما تكذبان . مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . وله الجوارِ المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . » *

وبفضل الاسلام هُزمت الوثنية في مختلف أشكالها . لقد حُرّر مفهوم الكون ، وشعائر الدين،وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهُوْلات أو المسوخ التي كانت تحطّ من قدْرها ، وحُرّرت العقول الانسانية من الهوى . لقد أدرك الانسان ، آخر الأمر ، مكانته الرفيعة . ولقد أذل

* السورة ٥٥ (الرحمن) الآيات ١٠ – ٢٥

نفسه أمام الخالق ، رب العالمين . انه لم يصبح قادراً فحسب على ان يقول مع ابراهيم ، بل لقد تعيّن عليه في الواقع ان يقول مع هذا النبي :

« إني وجهت وجهيَ للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين . » *

ومع محمد :

« قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا اول المسلمين . » **

لقد حُررت الروح من الهوى ، وأطلقت ارادة الانسان من القيود التي طالما أبقته مُوثقاً الى إرادة أناس آخرين ، أو الى ارادة قوى أخرى يدعوها خفيةً . لقد هوي الكهان ، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون ، وسماسرة الخلاص ، وجميع اولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والانسان والذين اعتقدوا بالتالي ان سلطتهم فوق ارادات الآخرين — نقول لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم . إن الانسان أمسى خادم الله وحده ، ولم تعد تشدّه الى الآخرين من الناس غير التزامات الانسان الحرّ

* السورة ٦ (الانعام) الآية ٧٩

** السورة ٦ (الانعام) الآية ١٦٢ — ١٦٣

نحو الانسان الحرّ . وبينا قاسى الناسُ في ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية ، أعلن الاسلام المساواة بين البشر . لقد جُعل التفاضل بين المسلمين ، لا على أساس من المحتِد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء ، ولكن على أساس من خوفه اللهَ ، وأعماله الصالحات ، وصفاته الخُلُقيّة والفكرية ليس غير .

يقول القرآن :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . » *

ويقول الحديث: « ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء . الناسُ من آدم وآدم من تراب . إن اكرمكم عند الله اتقاكم . »

لقد أزال الاسلام السرّيّة التي أضفاها الآخرون على دراسة الكتب المقدسة ، مؤنباً اولئك الذين لا يُحسنون غير تلاوة كلمات الكتاب ، ومشبّهاً اولئك الذين يزعمون أنهم يحتفظون بالتوراة بالحمار الذي يحمل أسفاراً . ولقد دعا كلّ امرىء ذي ميول دينية الى اكتساب المعرفة التي كانت

* السورة ٤٩ (الحجرات) الآية ١٣

ضرورية لفهم كلمة الله . ولم يكن عند المسلمين تفسير رسميّ لكتـابهم المقدس يُطلب منهم ان يَبنوا معتقداتهم على أساسه . ولم يكن عندهم مجامع كنسيّة مقدسة تحاول، بعد الدراسة والمناقشة ، ان تفرض صيغةً دقيقـة ينبغي اعتبارها رمزاً حياً للعقيدة المستقيمة او « الارثوذكسية ». ان الاسلام لم يمنح أياً من أتباعه الحقّ في الحكم على إيمـان اخيه في الدين .

قال القرآن :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم،ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . »

والحديث النبوي يؤكد الفكرة القائلة بأن قبول ايمـان المؤمن واعماله امتياز من امتيازات الله ، منكراً عـلى أي عبد من عبيد الله ان يحكم على تقوى أي عبـد آخر من طريق الاستحسان او الاستهجان . وفيما بعد ، عندمـا أنحطّت الدراسات اللاهوتية فأمست مناقشات بيزنطية دقيقة

---

* السورة ٤٩ (الحجرات) الآية ١١

كفّر اتباع الفرق المختلفة بعضهم بعضاً ، وحاولوا اقناع الحكومة المدنية بتحديد العقوبات التي ينبغي فرضها على الهراطقة . وفي القرن الخامس للهجرة ، وبفضل احد المفكرين الاسلاميين الكبار ، الغزالي،أعلِنت نظرية تذهب الى ان المتفق عليه من عقائد الدين الرئيسية هو الاساس الوحيد للاعتراف بإيمان الناس ، وأن الخلافات في ما يتصل بالتفاصيل العقائدية والطقوسية لا يمكن ان تنهض اساساً لإخراج احد من حظيرة الدين . « يجب ان تكفّوا عن ادانة اولئك الناس الذين يوجهون وجوههم في صلاتهم نحو الكعبة . » تلك كانت القاعدة التي وضعها ذلك الفيلسوف . لقد أبطلَت في آنٍ معاً كل مخادعة عقائدية وكل صيغة يمكن ان تدّعي انها السبيل الوحيد الى ادراك الخلاص ، واعادت المجتمع الاسلامي الى روح التسامح الرحب المتحرر الذي كان ميزةً اساسية من ميزات المسلمين الأولين والذي كان مهدداً بالضياع بسببٍ من تفسير روح الدين تفسيراً خاطئاً .

ان الآه الاسلام ، الواحد في جوهره ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، هو إلـه كليّ القدرة ، سيد الكون وسيد يوم الحساب . انه سوف يدعو اليه جميع اولئك الذين لم يتلقوا نداءه بسخرية او ازدراء ، والذين استطاعوا ان

يرتفعوا من مادية شخصياتهم ومتعلّقاتهم الأرضية الى مرتبة الاعتماد المطلق على الخالق . وفي السُّوَر القرآنية الأقدم عهداً صيغ الوحي الإلهي في صورٍ تمثيلية حول موضوعات الموت والبعث والخلود والحساب وما اليها . فويلٌ للذين لا يتوبون الى الله ولا يسلمون أمرهم اليه . ان عقوبات رهيبة ، عقوبات اليمة جداً ، لتنتظرهم ، وويلٌ لأولئك الذين يجرؤون على مخالفة الانبياء المرسلين اليهم او على ازدرائهم . ان الله سوف يستأصلهم ويقطع دابرهم . إنه هو الذي يعرف كل شيء ، ويرى كل شيء ، ويسمع كل شيء . انه خالق السماء والارض ، والحياة والموت. إنه رب العرش . وإن علمه كامل . إن ارادته مطلقة وإن قوته لا سبيل الى مقاومتها . وكل هذه الصفات انما تتجلى في ما صنع . إن كل شيء فقيرٌ اليه ، اما هو فغنيّ عما ابدع . إنه لا يشبه اياً من مخلوقاته . والصلة الوحيدة التي تجمعه بها هي انه خلقها . إنها له ، واليه مرجعها . ولكن هذا الآله الجبار هو ايضاً إله عادل . فليس في امكان العقل ان يتصور الهاً غير عادل . انه إله محيطٌ بأضأل عمل صالح يقوم به اي من مخلوقاته ، وهو لن يضيع أجر من أحسن عملاً . ولا يُظلمون فتيلاً . *

* انظر السورة الرابعة (النساء) الآية ٤٩

http://www.al-maktabeh.com

وكثيراً ما بحث لاهوتيو المسيحية والاسلام عن جواب لمسألة ارادة الانسان الحرة . ولقد قُدِّمت حلول مختلفة وفقاً للفرقة التي ينتمي اليها اللاهوتي،ولكن جميع الاجوبة تستند الى البدهية السالفة القائلة بالعدل الإلهي والى الاحكام الاخرى الواردة في القرآن والقائلة بأن أفعال الانسان ، سواء أكانت صالحة أو طالحة ، هي ثمرة حريته الكاملة . ويذهب محمد عبده الى انه بدأ ينشأ منـــذ الايام الاولى للاسلام شعور قوي بتبعية الانسان في مختلف حقول الوعي البشري ، مما ادى الى ظهور مناخ ملائم لانتصار الفكرة التي تنفي الارادة الحرة . لقد رُدت الفضائل والرذائل ، والجرائم والعقوبات كلها الى ارادة الله وحده ، بعد ان أسقِطَت إرادة الانسان من الحساب . أما اليوم فنجد ، على عكس ذلك ، ان الكثرة من المسلمـــين ــ باستثناء جماعات قليلة لا أهمية لها نسبياً ــ قد رجعت الى الفكرة التي تحمّل ضمير الانسان نفسه مسؤولية أعماله .

ان الله لا يوصد سبيله في وجه أحد ، حتى في وجوه الآثمين .. انه يضفي على كل أمرىء القدرة على القيام بالعمل الصالح . والآيات القرآنية التي قد تُعتبر مناقضة لهذه الفكرة يمكن تفسيرها حين نفهم مفادها الحقيقي فهماً كاملاً . والانسان في علاقته بالله يمكن تشبيهه بالمسافـــر

الذي يرتكب خطأً في الصحراء فيما هو يبحث عن الطريق الّي تقوده الى غايته الاخيرة الّي اليها يقصد . فأما الذي يستحق ، بفضل ايمانه وعمله الصالح ، رحمة الله وعطفه، فسوف يجزيه الله بالهداية ، في حين ان الله يتخـــلى عن ذلك الذي لا ينصرف الى العمل الصالح ويترّكه وشأنه . ان الله لن يمد يده اليه ، ولكنه في الوقت نفسه لن يكون هو الذي يدفع به الى طريق الشر .

هذا الإله القادر على كل شيء ، المستعـــد لإنزال العقاب ، هو ايضاً الرحيم ، الحافظ لعباده ، المدافع عن اليتيم ، هادي الآثم الى سواء السبيل ، المحرّر من الألم، صديق الفقير ، السيد السخيّ المستعد للغفران . انه يصغي؛ انه يغدق نعمه لان الخير بيده .

ورحمة الله من الفكرات الاكثر وروداً في القـــرآن . وَصِفَتا « الرحمن » و « الرحيم » اللتان تُستهلّ بهما كل سورة من سُوَره تمثّلان ، عملياً، الفكرات الاساسية في النص كله .

والله لن يضنّ ببركته على الآثم الذي يتوب . وحتى ذو الخطيئة قد ينعم بها ، لانه عـــلى الرغم من ان الله يصيب بعذابه من يشاء الا ان رحمته وسعت كل شيء ،

ولانه هو نفسه قد أمر بأن تكون الرحمة قـانوناً لا سبيل الى خرقه . *

وهذا ينطبق تمـــام الانطباق على ما جاء به الحديث النبوي :

« لما قضى الله لخلقَ كتب في كتابه على نفسه فهو موضوعٌ عنده إن رحمتي تغلب غضبي » .

« جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الارض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حـــافرها عن ولدها خشية ان تصيبه . »

ومن بين الصفات الإلهية نجد صفة الحب . يقول القرآن:

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم.والله غفور رحيم.» * *

ولكن ليس هذا فحسب . ففي مجموعة تنتظم اربعين من أهم الاحاديث النبوية نجد قول الله تعـــالى لمحمد :

« من عادى لي ولياً فقـد آذنتهُ بالحرب . ومـــا تقرَّب

---

* السورة ٧ (الأعراف) الآية ١٥٦

** السورة ٣ (آل عمران) الآية ٣١

إليّ عبدي بشيء احبّ إليّ مما افترضتُه عليه . ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى احبه ، فاذا احببته كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويـــده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بهـــا . ولئن سألني لاعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه . »

ونحن في ريب من ان هـــذا المفهوم للألـه ، المؤلف من اكمل الصفات ، والمنزّه عن جميع الصفـــات غير الكاملة ، سوف يبدو على مستوى واحد من النبل والرفعة لكل الناس . وليس من شك في ان قوماً سيقولون انـه ليس اصيلاً . وانه يشبه المفهومـــين اليهودي والنصراني الى حد بعيد ، وان الاسلام لم يقدم ايما عنصر جديـــد لتصوير العلاقة بين الانسان والله . ولكن اية قيمـــة لمثل هذا النقد اذا ادركنا ان محمداً نفسه لم يزعم انـه جاء بفكرات جديدة ، ولكنه اعلن في جـلاء ان الله ارسله ليعيد ملّة ابراهيم — التي حرّفت من بعده — الى اصلها وليؤكد ما كان الله قد أوحى به الى انبيائه السابقين مثل موسى ، وأشعيا ، ويسوع المسيح ؟ لقد كان هو آخر الانبياء حَمَلَة التشريع ليس غير .

لقد جاء الاسلام في زمن كان الناس منقسمين فيه الى فرق دينية ، وكانوا يتقاتلون فيه ويلعن بعضهم بعضاً ،

http://www.al-maktabeh.com

اذ كانت كل فرقة تعتقد انها مستأمَنة وحدها على كلمة الله — في زمن كان القتال والتعصب معتبريَنْ فيه جزءاً ضرورياً من الحياة الدينية . جاء الاسلام وأعلن ان الدين كان في جميع العصور ، وعلى افواه الانبياء جميعـاً ، ديناً واحداً،وانه في جوهره كان يدعو الى التعاليم نفسها، فهو يدعو الى الايمان بوحدانية الله ، وبالخضوع لارادته ، وبطاعة وصاياه ، وبالأخذ بأسباب الخير واجتناب الشرّ . وفوق هذا،اصر الاسلام على ان مختلف الاشكال والطقوس الّتي قدّمتها الاديان المتباينة انبثقت كلها من رحمة الله الذي اعطى كل شعب في كل وقت بعينه ديناً يلائم حاجاته ويساعد على التطور مع تقدّم العقل الانساني . ولكنه اصرّ على انه ، عندما نضج الجنس البشري آخر الأمر وأصبح، بفضل الاحداث ، مستعداً لفهم رسالة دينيـــة لا تخاطب عواطفه فحسب بل تخاطب عقله أيضاً ، ظهـــرَ محمدٌ ليوفق بين هذه التعاليم كلها لمصلحة الانسانية ، وليسوّي الخلافات بين « أهل الكتاب » ، يعني النصارى واليهود ، وليقود الناس نحو تحقيق السعادة ، في هـــذه الحياة وفي الحياة الآخرة على حدّ سواء .

والمسلمون جميعاً متفقون على ان الايمان بالله يأتي من الايمان بالانبياء . ولم يكن في ميسورنا ان نؤمن بالانبياء

او بآيات كتابٍ مُنْزَل لو لم يَسْبق هذا الايمانَ ثقة النفس الانسانية بوجود الله وباحتمال ارساله بعض الانبياء الحاملين هدايته الى الناس . ومن هنا فان اول واجبات الانسان ان يتدبّر ظواهرَ الطبيعة وان يتأمل فيهـــا لكي ينتهي الى الإيقان بوجود الله . وانطلاقاً من هذا المبـــدأ الرئيسي ينشأ الايمان بالانبياء وبالكتب المنزلة . وللاسلام في كتابه المنزل شيء أعجوبيّ .

ان معجزة الاسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل الينا الروايةُ الراسخة غير المنقطعة ، من خلالـه ، انباء تتّصف بيقينٍ مطلق. انه كتاب لا سبيل الى محاكاته. ان كلاً من تعبيراته شاملٌ جامع ، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب ، ليس بالطويل اكثر مما ينبغي وليس بالقصير اكثر مما ينبغي . اما اسلوبه فأصيل فريدٌ . وليس ثمة أيما نمط لهذا الاسلوب في الأدب العربـي الذي تحدّر الينا من العصور التي سبقَتْه . والاثر الذي يُحدثه في النفس البشرية انما يتمّ من غير أيما عَوْنٍ عَرَضيّ او اضافيّ من خلال سموّه السَّليقي . ان آياته كلها على مستوىً واحد من البلاغة ، حتى عندما تعالج موضوعات لا بدّ ان تؤثر في نَفَسها وجَرْسها ، كموضوع الوصايا والنواهي وما اليها . انه يكرّر قصصَ الانبياء ، وأوصاف بدء العالم ونهايته ، وصفات الله وتفسيرها ،

ولكنه يكررها على نحو مثير الى درجـة لا تُضعف من اثرها . وهو ينتقل من موضوع الى موضوع من غير ان يفقد قوته . اننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً ــ وهما صفتان لا تجتمعان عادة ــ حيث تجدُ كل صورة بلاغية تطبيقاً كاملا . فكيف يمكن ان يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ، وهو العربـي الأميّ الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة ابيات ، لا ينمّ ايّ منهـا عن أدنى موهبة شعرية * ؟

وعلى الرغم من ان محمداً دعا خصوم الاسلام الى ان يأتوا بكتاب من مثل كتابه ، او على الاقـل بسورة من مثل سُوره (**وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين** **) وعلى الرغم من ان اصحاب البلاغة والبيان الساحر كانوا غير قلائل في بلاد العرب فأن احداً لم يتمكن من ان يأتي بأيّ اثر يضاهي القرآن . لقد قاتلوا النبيّ بالاسلحـة ،

---

* ومنها قوله :

انا النبـي لا كذبْ

انا ابن عبد المطلب

** السورة ٢ (البقرة) الآية ٢٣

ولكنهم عجزوا عن مضاهاة السموّ القرآني .

ذلك ان الكتاب الى جـــانب كماله من حيث الشكل والطريقة ، قد اثبت انه ممتنعٌ على التقليد والمحاكاة حتى في مـــادته . فنحن نقرأ فيه ، الى جانب اشياء اخرى كثيرة ، تَنبُؤاً ببعض احداث المستقبل ، ووصفاً لوقائع حدثت منذ قرون ولكنها كانت مجهولةً على وجهٍ عام . ان ثمة اشاراتٍ كثيرة الى نواميس الطبيعة ، والى علـوم مختلفة ، دينيةٍ ودنيوية . اننا نقع ثمة على ذخائر واسعة من المعرفة تُعْجز اكثر الناس ذكاءً ، واعظم الفلاسفة، وأقدر رجال السياسة . ولهذه الاسباب كلها لا يمكن للقرآن ان يكون من عمل رجل غير مثقف ، قضى حياته كلها وسط مجتمع جافٍ بعيدٍ عن اصحاب العلم والدين،رجلٍ أصر دائمـــاً على انه ليس الا رجلاً مثل سائر الرجال فهو بوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات ما لم يساعده على ذلك ربّه الكليُّ القـــدرة .. إن القرآن لا يُعقل ان ينبثق عن غير الذات التي وَسِعَ عِلمُها كل شيء في السماء والأرض .

ولا يزال لدينا برهانٌ آخر على مصدر القرآن الالٰهي في هذه الحقيقة ، وهي ان نصّه ظل صافياً غير محرّف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزياه ويوم الناس هذا،

وان نصّه سوف يظلّ على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف ، بأذن الله ، ما دام الكون . ان هذا الكتاب ، الذي يُتلى كل يوم في طول العالم الاسلامي وعرضه ، لا يُوْقع في نفس المؤمن ايما حسّ بالملل . على العكس ، انه من طريق التلاوة المكرورة يُحبّب نفسه الى المؤمنين اكثر فأكثر يوماً بعد يوم . انه يوقع في نفس من يتلوه او يصغي اليه حساً عميقاً من المهابة والخشية . ان في امكان المرء ان يستظهره في غير عُسْر ، حتى اننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الايمان ، آلافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب . وفي مصر وحدها عدد من الحفّاظ اكثر من عدد القادرين على تلاوة الاناجيل عن ظهر قلب في اوروبة كلها .

ان انتشار الاسلام السريع لم يتمّ لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة . ان الذي ادى الى ذلك الانتشار كونُ الكتاب الذي قدّمه المسلمون الى الشعوب المغلوبة ، مع تخييرها بين قبوله ورفضه ، كتابَ الله ، كلمةَ الحق ، اعظم معجزة كان في ميسور محمد ان يقدّمها الى المترددين في هذه الارض .

وبالاضافة الى العقيدتين الاساسيتين اللتين أشرنا اليهما آنفاً ــ وحدانية الله ورسالة محمد ــ فإن جميع العقائد

الاخرى التي يؤمن بها المسلمون والمقبولة لدى الجماعة الاسلامية بعد قرون من الدراسة والمناقشة ليس من طبيعتها بأية حال من الأحوال ان تعوق العلمَ الحديث او تعارض الحقائق الفلسفية . وفي ما يتصل بخَلْق الكون فأن القرآن على الرغم من اشارته الى الحالة الاصلية والى اصل العالم (او لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي،افلا يؤمنون*.) لا يقيم أيما حدّ مهما يكن في وجه قوَى العقل البشري ، ولكنه يتركها طليقةً تتخذ السبيل الذي تريد . وفي مسألة النواميس الطبيعية يقتصر القرآن على النص على ان الله قد سنّ بعض النواميس التي تسيّر الخليقة والتي لا تتغير .

وبينا نجد جميع الاديان الاخرى تقدّم الى ابنائها حملاً ثقيلاً من العقائد التي لا يستطيعون حملها وفهمها نَرى الاسلامَ ذا سهولةٍ مُعجزة ، وبساطةٍ نقيّة كالبلور . وكان ذلك سبباً آخر ايضاً في انتشاره السريع إبان الفتوح الاولى بين اناس غرقوا في اضطراب روحي عميق بسبب من الغموض الذي يكتنف بعض معتقداتهم

---

* السورة ٢١ (الانبياء) الآية ٣٠

http://www.al-maktabeh.com

الدينية . وهو ايضاً السبب في انتشاره الموصول اليوم بين الشعوب غير المتحضرة في آسية وافريقية ، لأن الاسلام قادرٌ على النفاذ الى اعماق نفوسهم من غير ما لجوء الى شروح مطولة ، أو عظات معقدة .

الفصل الثالث

معنى الشعائر الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

ان اركان الاسلام ، بالاضافة الى شهادة ان لا إلـه إلا الله ، هي الصـــلاة والصوم ، والزكاة ، والحج . وجميع هذه الشعائر ينبغي ان ينظر اليهـــا من أكثر من وجهة النظر الخارجية ، لأن مثل هذا الموقف خليق به ان لا يقلّ سطحيةً عن إعجاب المرء بالأصداف من غير ان يدرك انها حافلة باللآلىء النفيسة . وكل من هذه الأركان ينبغي ان يُدرس درساً دقيقاً لاكتشاف السرّ الذي يجعل في ميسور تلك الشعائر ان تطهّر روح المؤمن وتساعدهـا على السموّ ، تدريجياً ، نحو الله . وعندئذ فقط نستطيع ان نرى أن لهـــا غرضاً مزدوجاً : تمجيد الله من قِبَلِ عبيده ، والتعبير عن شكرهم للنعم التي أسبغها عليهم .

فما ان يدعو المؤذن جماعـــةَ المؤمنين الى أداء اول واجباتهم الدينية ، الصلاة ، حتى يُذكّروا ، مهما كانوا منغمسين في شؤونهم الدنيوية ، بخـالقهم . إنهم يستهلون هذه الشعيرة بتمجيد الله ويختمونها برفع تحياتهم اليه . إنهم يشعرون بالطمأنينة دائمـــاً في حضرته . وهم إذ يُذلّون

أنفسهم بالسجود إنما يعبِّرون عن خضوعهم المطلق للقـوة الإلهية . إن لكل من الكلمات والاعمال في الصلاة الاسلامية معنى خاصاً ، ولكنه ليس من العمق بحيث يعجز العقـل الانساني العادي عن استيعابه .

وليس ههنا مجال شرح هـذه المعاني . من أجل ذلك نجتزىء بالنص على أن الصفة الانضباطية لمختلف الحركات التي ترافق الكلمات تساعد على إبقاء أفكار المصلّي مركّزةً وراء عالم الجسد ، وتمكّنه من التعبير عن ولائـه وتقديم شكره على الهبات الإلهية على أعمق وجه . إن التوجه نحو مكـــة ليذكّر العالم الاسلاميّ دائماً بالموطن المجيد الذي شهد ولادة هـــذا الدين التجدديّ ، وهو مركز مقدس تدور حوله في جميع الأوقات عواطف المؤمنين الدينية ، وقد اتحدوا كلهم في عبادة الإله الواحد .

لقد أشار القرآن الى قيمة الصلاة البالغة الرفعة كوسيلة للسمو الاخلاقي وتطهير الفؤاد فقال :

« أتلُ ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة ؛ إن الصـــلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولَذكرُ الله أكبر والله يعلم مـــا تصنعون . » *

---

* السورة ٢٩ (العنكبوت) الآية ٤٥

ان الله لا يبالي بالأداء الشكليّ للشعيرة الدينية ، ولكنه يطالب المؤمن بالعبادة الصادقة الصادرة من الفؤاد . وهذه الفكرة يعبر عنها القرآن ، في وضوح بقوله :

« لن ينال اللهَ لحومها* ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . »**

وكثيرة هي الأحاديث النبوية التي تؤيد رغبات الله في هذه المسألة . يقول أحدها :

« صلاة في مسجدي هذا ، خير من الف صلاة في ما سواه من المساجد ، واذ أفضل الصلاة صلاة الرجل في بيته . »

فليس من شروط صلاة المسلم ان تؤدّى في معبد ، لأن أيما مكان في الارض ، شرط ان يكون نظيفاً ، هو قريبٌ الى الله ، وبالتالي ملائمٌ للصلاة . وليس المسلم في حاجة لا الى الكهان ولا الى القرابين ولا الى الطقوس لكي يسمو بقلبه الى خالقه .

والشرط الوحيد الذي ينبغـــي توفره في الصلاة لكي تكون مقبولة هو طهارة الجسد ، التي تعني أيضاً طهارة

---

* أي لحوم الأضاحي.

** السورة ٢٢ (الحج) الآية ٣٧

النفس، وطهارة الثياب والمكان . لقد أعاد الاسلام القداسة الى عادة الوضوء القديمة ، متخذاً من المثل الذي ضربه محمد وسيلة لتحديد تفاصيله وتفاصيل الصلاة . ان القرآن لا يقرن الكلام على هذه الشعيرة بأي ارشاد خاص ، مما جعل باحثاً بارزاً ، مثل أمير علي ، يصرّ على بساطة الشعائر القرآنية واعتدالها الرائع اللذين يتركان للمرء أعظم قدر من الحرية في مجال الوظائف الروحية الأكثر سمواً .

ولصلاة الجمعة المؤلفة من خطبةٍ ومن صلاة تتلى على نحو جماعيّ ، مزاياها وأهميتها الخاصة ايضاً . ان هذه الصلاة ، بجمعها المسلمين في شعيرة واحدة قوامها الاذعان والخضوع لله ، تُشعرهم انهم جميعاً مخلوقاته ، ومن هنا فهم جميعاً إخوة . وما تفرضه هذه الصلاة على المؤمنين من اتباع الإمام يخضعهم لخبرةٍ ما من الانضباط والطاعة. واخيراً ، فأن الإمام يفتح قلوبهم ، من طريق الخطبة ، ويرتفع بها نحو الله .

والركن الثاني من أركان الاسلام الصوم الذي يقوم ، كما هو معروف ، على الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين والاتصال الزوجي خلال ساعات النهار كلها من شهر رمضان بطوله . انه عملٌ قوامه الانضباط والرحمة والشفقة . إنه يقتضي المؤمن اجتناب جميع ملذات الجسد

خلال مدةٍ بعَينها . انه يعلّمه لجَمَ شهواته . فهو بتجويعه المؤمنَ وإفهامه مبلغ الألم الذي ينطوي عليه الجوع يفجّر في نفسه الشفقة على الفقير والمعدم . وهو في حَمْلِهِ على ادراك ما ينعم به من آلاء ، يعمّق اعترافه بفضل الله عليـــه . وهذا الصوم الألزامي مفروض على الاشخاص الاصحاء الاقوياء وليس مفروضاً على الضعيف، والمريض، والمسافر ، والمقاتل في سبيل الله ، أو المرأة خلال ايام الطمث ، والحمل ، وخلال اشهر الرضـــاع . ذلك بأن الله ليس قاسياً على مخلوقاته ولا يقتضيهم اعمالاً تعبّدية لا طاقة لهم بها .

لقد اعترفت جميع الاديان ، الى حدّ مـا ، بالاهمية الاخلاقية والاجتماعيـــة الكبرى التي ينطوي عليها تقديم الصدقات ، وأوصت بذلك بوصفه تعبيراً حسياً عن الرحمة وسبيلاً ملائماً لالتماس لطف الله وكرمه . ولكن الاسلام يتمتع وحده بالمجد المتمثّل في جعل الصَدَقة إلزاميـة ، ناقلاً تعاليم المسيح الى دنيا الأمر،ومن ثم الى دنيا الواقع . فكل مسلم ملزَم ، بحكم القانون ، بأن يخصص جزءاً من ثروته لمصلحة الفقراء ، والمحتاجين ، والمسافرين والغرباء الخ . وبأداء هذه الفريضة الدينية يختبر المؤمن حسّاً اعمق من الانسانية ، ويطهّر روحـــه من الشحّ ، ويأخذ في

مراودة الأمل بالفوز بالمكافأة الالآهية .

وعلى كل مسلم ، اذا توفّرت فيه بعض الشروط ، ان يقوم بالحج الى مكة مرة واحدة في حياته على الأقل. ومن طبيعة القوى العميقة المكنونة في هذه الشعيرة ان يعجز العقل البشري عن اعتناقها الا في القليل النادر ، ومع ذلك فأن ما يمكن استيعابهُ من تلك القوى ، في سهولة ويسر، يتكشّف عن حكمة كاملة ، فليس في استطاعة احد أن ينكر الفائدة التي يجنيها الاسلام من اجتماع المسلمين السنوي في مكان واحد يسعون اليه من مختلف ارجاء العالم . ان العرب ، والفرس ، والافغان ، والهنود ، وابنـاء شبه جزيرة الملايو ، وابناء المغرب ، والسودان ، وغيرهم ، كلهم يتوجهون نحو الكعبة المقدسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم . وهم اذ يلتقون في مثل ذلك المكان لمثل هذا الغرض انما ينشئون صِلاتٍ جديدة من المحبة والاخوّة .

مرةً واحدةً في حياة المسلم على الأقل تُلغى الفروق كافةً بين الفقير والغنيّ ، بين الشحاذ والأمير ، إلغـاء تاماً . ذلك ان كل حاجّ مسلم يلبس ، خلال اداء تلك الفريضة المقدسة ، الثياب البسيطة نفسها ، ويخلّف وراءه

http://www.al-maktabeh.com

حلاه الشخصية ، ويتخذ لنفسه شعاراً واحداً ليس غير ، هو كلمة « الله أكبر ! » . والشعائر التي يتعيّن على الحجاج اداؤها ، من مثل الطواف ببيت الله (الكعبة) ، واللقاء قرب جبل عرفات ، وتقديم الذبائح عند مِنى ، توقظ في نفسه ذكرى الانبياء والآباء العظام الذين عاشوا في المواطن نفسها خلال العصور السالفة . انها تعيد الى الحياة اعمال ابراهيم ، مؤسس الدين الخالص ، واعمال ابنه اسماعيل وزوجته هاجر . وهي توقظ في الحاجّ النزعة الى تقليدهم في تعاطفهم وفي خضوعهم لمشيئة الله .

وتتجلى حكمة الله ايضاً في ما يمكن ان ندعوه المظاهر المقيّدة للقواعد المتصلة بالحج ، اعني تلك الشروط التي يصبح الحج ، عند توفرها ، إلزامياً . وهذه الشروط هي حرية الفرد التامة ، وقدرته على احتمال النفقات المطلوبة ، وفي ذلك نفقة السفر ، ومقدرته على إعالة اهله إبان اداء الفريضة الدينية ، وامكان تنفيذ الرحلة على نحو عمليّ ميسور .

وبكلمة اخرى ، فإن الله لم يفرض على الانسان مجموعة من القوانين يعجز عن احتمالها ، ولم يفرض عليه في ايّ من الشعائر ، قواعد جامدة قاسية لانه يريد بالناس اليُسْر :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . » *

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهّركم وليتمّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون . » **

« لا يكلف الله نفساً الا وسعها . » ***

« يريد الله أن يخفف عنكم ، وخُلِق الانسانُ ضعيفاً . » ****

وهذه المبادىء كلها تجد ما يعزّزها في الحديث الشريف الذي يقول :

« إن الله تعالى لم يبعثني مُعَنّتاً ولا متعنّتاً،ولكن بعثني معلّماً ميَسّراً . »

---

* السورة ٢ (البقرة) الآية ١٨٥

** السورة ٥ (المائدة) الآية ٦

*** السورة ٢ (البقرة) الآية ٢٨٦

**** السورة ٤ (النساء) الآية ٢٨

الفصل الرابع

الأخلاق الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

زعم بعض الكتاب الغربيين ان الاخلاق الاسلامية خطرة على الفرد لأنها حافلة بروح الخضوع والاستسلام السلبي للقوة الالآهية ، هذا الاستسلام الذي يوحيه اسمُ الاسلام نفسه . انهم يذهبون الى ان الانسان الذي يستبدّ بـه ، تجاه الالآه الجبار ، مثل هذا الحسّ من الاتكال عليـه والذي يفوّض امره الى الله تفويضاً كاملاً ، مخضعاً ارادته الحرة لارادته ، لا يمكن ان يَعْمُر نفسَه الحافزُ ذاتُهُ الذي يحفز من يقف امام الله وقفة السيد المطلق لضميره .

وقبل ان نحاول تقديم المفاهيم الاخلاقية العليا التي تنير نفوس اتباع محمد سنجيب على هذا الاتهام بكلمات غولدزير، العالم الاوروبي ، نفسه : « .... كأن وعي المسلم وعياً قوياً أنه خاضع لقانون الآهي صارم او ايمانه بالسمو الالآهي عقبتان تحولان دون اقترابه من الله عن طريق الايمان ، والفضيلة ، والاعمال الحميدة ، ودون فوزه بالرحمة الالآهية ! وكأنّ انتهاجية الاديانِ الفلسفيةَ تستطيع ان تعدّل صفات

التقوى الباطنية عند امرىء يستغرق في الصلاة استغراقاً كاملاً او يرفع روحه في اتّضاع — وقد وعى ضَعْفه وحوافزه — نحو المصدر الكلي القدرة لكل قوة مهما تكن ولكل كمال مهما يكن ! »

ان الاسلام لم يكن قط عقبة في سبيل الكمال الخلقي. ليس هذا فحسب ، بل لقد وفق قبل اي دين آخر — اذ كان يملك في ذات نفسه قوة فعالة موجهة نحو الافعال الحميدة — الى تهذيب الناس والارتفاع بهم نحو الله . وانما نجح الاسلام لانه لم يكن اقل اهتماماً بالمسؤولية الاخلاقية عند افراده من الاديان التوحيدية الاخرى التي اعترف محمد بأن انبياءها إخوانه ، ولأنه كان في بعض النواحي اكثر عناية بهذه المسؤولية من اولئك الانبياء ، اذ ادخل في حسابه الضعفَ البشري ودعا اتباعه الى مثلٍ عليا غير بعيدة عن متناولهم . فالفضائل نفسها التي تقدمها اليهودية والنصرانية بوصفها الغاية القصوى لحياة الانسان الاخلاقية لا يقدمها الاسلام كمثل عليا فحسب ، بل يأمر بها كمُثلٍ عليا ايضاً . ومن هذه المثل العليا الاشفاق على المخلوقات جميعاً ، وحسن التفهم ، والصفح ، والبساطة ، واللياقة في العلاقات الاجتماعية ، وتقبّل الرزايا ، وما الى ذلك . والآيات القرآنية التي تؤكد على العمل

الصالح تعدّ بالآلاف ، ولكن لما كنا لا نستطيع ان نطيل الوقوف عند هذا الفصل فاننا سوف نكتفي بتقديم بعض هذه الآيات نختارها كيفما اتفق :

« وما ادراك ما العقبة . فك رقبة . او اطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . او مسكيناً ذا متربة . »*

« فأنذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها الا الأشقى . الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . الا ابتغاء ربه الأعلى . ولسوف يرضى . »**

« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً . »***

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين

---

* السورة ٩٠ (البلد) ، الآية ١٢ – ١٦

** السورة ٩٢ (الليل) ، الآية ١٤ – ٢١

*** السورة ٧٦ (الانسان) ،الآية ٨ – ٩

الغيظ والعافـــين عن الناس ، والله يحب المحسنين . » *

« ليس البر ان تولوا وجوهكم قِبلَ المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيّين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون . » **

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الأثم والعدوان ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب . » ***

ان الاسلام يشدد على اهمية العمل الصالـــح الذي هو نتيجة اشفاق الانسان على الانسان ، كما يشدد على رحمة الله . فاليتيم ، والفقير ، والمسكين ، والبائس محوطون برعاية وحماية بالغتين . والاسلام يعلن ان الإخاء والرحمـــة هما

---

* السورة ٣ (آل عمران) ، الآية ١٣٣ — ١٣٤

** السورة ٢ (البقرة) ، الآية ١٧٧

*** السورة ٥ (المائدة) ، الآية ٢

حجرا الزاوية في المجتمع الاسلامي . وكان هـــذا نصراً كبيراً اذا قارنّا الأيام الاسلامية بالأيام الوثنية التي كانت الطبقة الحاكمة خلالها تضطهد الفقراء وتزدريهم في غطرسة وجشع على ما نرى في كثـــير من آيات القرآن . كانت المخاتلة ماثلة دائماً فى كل ضرب من ضروب التعـــامل التجاري ، ولم تكن ابسط الواجبات نحو الجـــار لتحظى بأية أهمية .

وسوف نكتفي بالنص على آيتين ليس غير من الآيات الكثيرة التي تدور على موضوع العدل :

« يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . » *

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل . » **

وفي استطاعة كل امرىء ان يقدّر بنفسه اي شعـور عميق بالانسانية توحيه هاتان الآيتان القرآنيتان :

« وقضى ربك ألا تعبـــدوا إلا ايـــاه

---

* السورة ٣٨ (ص) ، الآية ٢٦

** السورة ٤ (النساء) ، الآية ٥٨

وبالوالدين احساناً . إما يبلغنّ عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً . » *

وفي القرآن ايضـــاً بعض الآيات التي تذكّر بالوصية الانجيلية التي كثيراً ما يعتبرهـــا المسيحيون حجر الاساس في اخلاقية النصرانية :

« إدفع بالتي هي احسن السيئةَ » . **

وفي ميسورنا ان نواصل الاستشهاد بكثير من الآيات القرآنية وكلها من معدنٍ نبيل جداً ، ولكنـــا نحسب ان من الخـــير ان نشير الى عقيدة تعتبر حافزاً الى التمسك بأهداب الفضيلة أقوى من اي ترغيب آخر . نعني العقيدة القائلة بأن هذه الحياة الأرضية تحمل في ذات نفسها بذرة الحياة الآخرة ، وأن أيما عمل يقوم به المرء في دنياه هذه سوف يساعده على بلوغ السعادة القصوى في دار الخلود، وأن طهـاره القلب والعمل الصالح ضروريان للفوز برضا الكلي القدرة ، وأن كل أمرىء سوف يجد ، حين يواجه

* السورة ١٧ (الاسراء) ، الآية ٢٣ – ٢٤

** السورة ٢٣ (المؤمنون) ، الآية ٩٦

http://www.al-maktabeh.com

الله يوم القيامة ، ما عَمِل من خير او شر مُحْضراً .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ،
ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . » *

« ان الله لا يظلم مثقال ذرة ، وان
تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه اجراً
عظيماً . » **

ومن ناحية ثانية فإن عقوبات رهيبة وأليمة جداً تنتظر الاشرار والآثمين . ان يوم الحساب ليُصَوِّر في ألوان نارية . فالله ، قاضي الكون الاعلى ، سوف يسأل الابرار ان يغادروا العالم الفاني ويلتحقوا به في صميم رحمته ، على حين انه سوف يقذف بكل اولئك الذين لم يلقوا بالاً لنُذُرِ الانبياء الى هاوية جهنم الملتهبة .

ومن الضروري ان ندحض ، هنا ، اتهاماً آخر يوجهه غير المؤمنين الى الاسلام . وهو ان الاسلام وعد أصحابه بجنّة حسيّة ذات حور عين ، وانهار من لبن وعسل ، وفاكهة لذيذة ، وحدائق وأعناب ، ومجموعة مدرّجة من الملذات الممعنة في المادية . والواقع ان مثل هذه الاتهامات تنسى أنه لم يكن في ميسور ابناء الصحراء ان

* السورة ٩٩ (الزلزلة) الآية ٧ – ٨

** السورة ٤ (النساء) الآية ٤٠

يفهموا وعوداً بمكافآت روحية مرهفة الى أبعد الحدود . لقد كان من الضروري اعطاؤهم وصفاً واقعياً للجنة: وصفاً يكاد يكون ملموساً ، في كلمات بسيطة . وما كان ممكناً ، إلا في ما بعد ، عندما بلغوا مستوياتٍ روحية أسمى ، ان نخاطبَ البدو بلغة التعبّد لله في ضعة وحبّ . بيد أنه لمن البهتان البالغ القول إن محمداً وأتباعه فهموا هذه الأوصاف الواقعية فهماً حرفياً ، لأنهم منذ البدء وجدوا فيها معنى أعمق من ذلك الذي يستطيع الوصف إظهاره ، أعني أن السعادة العظمى سوف تكون ، وفقاً للغزالي ، في رؤى الروح المُحَسَّنة في حضرة الكلي القدرة عندما يزاح آخر الامر الحجاب الذي يفصل الانسان عن الله ، وتظهر الهالة السماوية بكامل تألقها .

وتأييداً لمفهوم جنّةٍ من هذا النوع يقول حديث شريف ما معناه : « انّ أحبَّ الناس الى الله هم اولئك الذين سوف يرون مجد الله ليل نهـــار والذين سوف يستمتعون بسعادة تفوق جميع ملذات الجسد ، كما يفوق الاوقيانوس قطرة من عرق . » *

كيف ، اذن ، سيحكم الله على أفعال عبيده ؟ هل سيكون ذلك على أساس من مقياس خارجيّ ما ، أم وفقاً لنتائج تلك الأفعال ؟ لا . ان القرآن ينص في صراحة

---

* لم نقع لهذا الحديث على أصل (المعرب)

على ان الله ينظر الى النية التي يتم بها العمل ، وهذا هو الأساس لتقييم الاعمال الروحي . إنه ينصّ على ان الخضوع الصارم للقانون ، اذا لم ترافقهُ أعمال رحمـــةٍ وإحسان ، لا قيمة كبيرة له عند الله ، وان الدافع الأناني أو الريائي يُجرد العمل الصالح من قيمته كلها . ولقد رأينا المفهوم نفسه من قبل عندمـــا درسنا الشكليات في أداء الفريضة الدينية . ونحن نراه الآن يتكرر في ما يتصل بأعمال المؤمن. ان العبادة يجب ان تكون « مُطهّرة » * ، ويجب أن تنبع من « تقوى » القلوب و « سلامتها » **

ان الرياء والكِبْر ليهاجمان في هذا الدين مهاجمة عنيفة جداً ، بل لقد اعتبرهما في بعض الأحيان شكلاً معتدلاً من الشرك بالله لأن الناس الذين يخضعون لهذين الدافعين إنما يربطون عملياً — كما يقول بعض الكتّاب — بين فكرة الله وبين الرغبة في اكتساب الاحترام بين الناس .

ومثل سائر الاديان يُقـــدّم الإسلام تفسيراً للمشكلة القديمة التي ما تزال تحيّر العقل البشري ، أعني لماذا يبدو وكأن الاشرار يتمتعون بنعَم اليُمن وحسن الطالع ، في حين أن الابرار كثيراً ما تُلمّ بهم الكوارث والنوازل ؟

---

* السورة ٩٨ (البينة) الآية ٢

** السورة ٢٢ (الحج) الآية ٣١ والسورة ٢٦ (الشعراء) الآية ٨٩

إن الإسلام يعلّمنا ان الله يُملي للمتمردين والطغاة والظالمين ويُمهلهمْ حتى موتهم في بعض الأحيـــان . ولكن ثوابه وعقابه آتيان لا ريب فيهما . انه يعلّم ان الله كثيراً ما يمتحن عبيده بالمصائب ليُظهروا روح التسليم التي يفوّضون بها أمرهم — في اتّضاع — الى مشيئته ، قائلين : « إنا لله وإنا اليه راجعون . »

ان الاحاديث النبوية لتحمل الينا تحديداً للرحمة والاحسان ليس أجمل منه ، وهي تُردفُ ذلك بتحديد ليس أدق منه للمفاهيم الاخلاقية . وغني عن البيان ان آيات القرآن التي لو أُخِذت وحدها لما كانت كافيةً لتنظيم الحيـــاة الانسانية كلها في مختلف أحداثها وإمكانياتها ، قد أُتْبِعَت وأُرْدِفتْ وأُكمِلَتْ بمجموعة من الاحاديث المأثورة التي ترقى الى الرسول . وليس يضير هذه الأحاديثَ أن يشكّ المرء في صحة بعضها وقِدَميته . فحتى لو سلّمنا بأنها لا ترقى كلها الى محمد نفسه فأن كثرتها تُجسّد روح الجماعة الاسلامية القديمة التي امتزجت بروح الاسلام الحقيقية ، وتحمل الينا مفاهيم تلك الجماعة ومطامحها . وفي استطـــاعة القارىء ان يحكم بنفسه على جمال الحديثين التاليين ومعناهما :

« لكل شيء مفتاح ، ومفتاح الجنـــة المساكين . »

« لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . »

ولكن أشمل الأحاديث النبوية كلها هو حديث ذلك المتشرّد العجوز الذي دخل في الدين الاسلامي ، والذي قال « ان الرسول أوصاه بسبعة أشياء : ان يحب الفقراء؛ وأن يكون على مقربة منهم ؛ وان ينظر دائماً الى من هم أدنى منه لا الى من هم فوقه ؛ وان لا يسأل أحداً أمراً ؛ وان يكون براً بوالديه دائماً ولو أزعجاه ؛ وأن يقول الحق دائماً ولو كان مرّاً ؛ وان لا يدع الاهانة تصدّه عن سبيل الله ؛ وان يردد دائماً : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لأن هذا هو جزء من الكنز المخبوء تحت عرش الله . »

وحين طرأ التصوف ، في ما بعد على الاسلام ارتفع امام النفس البشرية مثل أعلى اكثر سموّاً : ان كمال الانسان وسعادة الانسان رهن بالجهد الذي يبذله لمحاكاة صفات الله ولفهم الجوهر الحقيقي لهذه الصفات .

ومن الاحاديث النبوية تنشأ عقيـــدة أخرى أكسبت الإسلام شهرة مميزة . إن الله لا يَقْصُرُ رحمته على الانسان وحده ، ولكنه ينظر الى الحيوانات ايضاً في حب وحنان . وإذْ كانت حياة الحيوانات عنـــده لا تختلف من حيث

http://www.al-maktabeh.com

الأساس عن حياة الانسان فيتعين عـــلى من يود اجتناب الغضب الإلهي ان يرحم الحيوانات ويرأف بها . إن عليه ان يقدم اليها ، دائماً ، ما تحتاج اليه من طعام وشراب ، وأن يمنحها الراحة الضرورية .

والاسلام — فيما يدلّ المرء من خلال القرآن والسُّنَّة على الطريق الى الفضيلة — لا ينسى حاجات الطبيعة البشرية الا بقدر ما نسيَ ضَعْفَ الانسان عندما فرض عليه شعائر العبادة . وحين يقدم الاسلام الى الانسان مَجلىً أخلاقيـــاً يستطيع ان يَفْزَع اليه في حال يأسه ، فإنـــه لا يذهب الى ما وراء حدود الواقع ، ولا يعطي أصحابه مثلاً أعلى في الفضيلة يعجزون — ما خـــلا قلة مختارة منهم — عن احتماله . لا . إنه يقيم بدلاً من ذلك قواعد للحياة سليمة تثبت عند وضعها موضع التطبيق أنها قواعدُ عمليةٌ اصيلةٌ رائعة . إنه اذ يقدِّم الى المؤمنـــين نموذجاً من التماسك والاستقامة لا ينحرف عن ناموس الحياة ، بل يَلزَمُ عمودَ الطبيعة الانسانية ويُدخل في حسابه مطمحَ المـــرء الحقَّ الى سعادة قويمة . ليس هذا فحسب ، بل إنـــه — وهو البعيد عن إحداث أيما اختلاف بـــين حياة الفرد الدينية وسلوكه في الحياة — يتطلع ايضاً الى خلق مجتمع يكون الانسان عضواً فيه وخادماً مخلصاً مِن خدمِ الله في

وقت معاً .

والمسلمون يعتقدون بأن خير سبيل يستطيع المرء التعبير بواسطته عن شكره لله هو ان يستخدم ما اسبغه الله عليه من نعمة استخداماً خيِّراً . والافادة من الاشياء الطيبة التي وضعها الله في متناول كل انسان ليست امكانيةً فحسب، ولكنها واجبٌ ايضاً ، اذا لم يكن في تلك الأشياء الطيبة شيء قد يعود بالخطر عليـــه او على جيرانه . يقول القرآن :

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح في ما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقـــوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين . » *

« قل من حرّم زينة الله الـــتي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، وكذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . » **

انّ السُّنَّة النبوية هي اقوى سِنادٍ لمفهوم في الحيـــاة سليم . وهنـا يحسن بنا ان نكرر ما قلناه سابقـــاً عندما

---

* السورة ٥ (المائدة) ، الآية ٩٣

** السورة ٧ (الأعراف) ، الآية ٣٢

تحدثنا عن الاحاديث النبوية التي تنطوي على أسمى المفاهيم الاخلاقية . فنقول : ما ضرّ لو أثار أحدٌ مسألة صحة نسبة هـــذه الاحاديث الى الرسول ؟ ان العالم الاسلامي يتقبل اليوم هـــذه الاحاديث كشيءٍ صحيحٍ وهو يتبع وصاياها في الأعمّ الأغلب .

ان ثمة حديثاً شهيراً يقول : « لا رهبانية في الاسلام » * والواقع ان الاسلام لا يبالي بالزهدية او النسكية بتعذيبها العقيم للجسد ، وما تنطوي عليـــه من ضروب الحرمان غير الضرورية ، وبصياماتها الموصولة ، ولياليها المُنفَقَة في الصلاة . وفي ما يتصل بالزواج لا تطالب السنّـــة الاسلامية بأكثر من حيـــاة امينة انشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق ، متذكراً الله من ناحية ، ومحترماً حقوق الجسد والاسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية .

قال الرسول :

« ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك

* عبر القرآن عن هذا المعنى في الآية التالية :

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة . ورهبانية ابتدعوها ما كتبنا عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون . » السورة ٥٧ (الحديد) الآية ٢٥ .

آخرته لدنياه ، بل خيركم من جمع بينهما » .

وقال موجهاً الخطاب الى فتى متقد الحماسة اكثر مما ينبغي :

« ان لجسدك عليك حقاً ، ولزَوْرِك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً فأعطِ كل ذي حق حقه . »

وقال لذلك الذي سأله النصح في موضوع الصدقات :

« تصدق بثلث مالك ، والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك اغنياء خير لك من ان تذرهم عالة يتكففون الناس . »

والتبتل الصارم موضع نقد قاسٍ في الاسلام ، وهو يتنافى مع السنّة التي أقامها محمـــد . وقد حث الرسول اتباعه على الزواج .

ان القيود التي فرضها الاسلام على اتباعه في موضوع التمتع بالحياة قليلة ، يتساوى فيها الجميع ، وتـــنم عن حكمة بالغة . واليوم حـــين تُشنّ في العالم الغربـي حملةٌ قاسية على معاقرة الخمر ، وحين يحاول الغرب ان يضع حداً للقمار من طريق التحريم والتعقيد هل يستطيع احد ان يلوم الاسلام لايصاده في عنف ، « بابَي الخطر » هذين ، ولمحاربته إياهما بوصفهما سببين في افساد الروح والـــثروة جميعاً ؟ ان القرآن يعتبر الاقتصاد فضيلة ، ولكن ليس

هذا فحسب . فنحن نقـــرأ في الكتاب العزيز عن تحريم القمار والربا . أفلا يجد المرء نفسه مضطراً الى القول ان حكمة الله تشرق في هذا المنع للمكاسب غير الشرعية ؟

ان الناس في حاجة الى دين ، ولكنهم يريدون من هذا الدين ، في الوقت نفسه ، ان يلبّي حاجاتهم ، وان لا يكون قريباً الى عواطفهم فقط بل ان يقدم اليهم ، ايضاً ، الطمأنينة والسلامة في هذه الحيـــاة الحاضرة وفي الحياة الآخرة معاً . والواقع ان الاسلام يفي بهذه المطالب على الوجه الاكمل ، لانه ليس مجرد عقيدة ولكنه — الى ذلك ايضاً — فلسفة حياة . انه يعلّم التفكير الصائب ، والعمل الصالح ، والكلام الصادق ، وهو لهذه الاسباب يتخذ سبيله الى عقل الانسان وقلبه في غير عُسْر .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الخامس

الحكم الإسلامي والحضارة

ان علينا ان نقدّم أعمق إعجابنـــا الى دينٍ لا يكتفي بنظرية ملائمة لمطامح الطبيعة البشرية ، وبإقامة شريعة تتألف من أسمى القوانين التي يستطيع الانسان الحياة وَفقهـــا ، ولكنه يذهب الي ابعد من ذلك فينادي بفلسفة حياة . دينٍ يقيم مبادىء الاخلاق الاساسية على أساس نظامي وايجابي. دينٍ يفرغُ واجب الانسان نحو نفسه ونحـو الآخرين في قواعد دقيقة قابلة للتطوير وملائمة لاسمى الترقي الفكريّ . دينٍ يقدّم ، فوق ذلك كله ، دعماً لهـــذه النواميس . إن سلطان مثل هذا الدين علي حَيَوات النـاس عموماً ، وبصورة أخص على حياة الأمين وغير المثقفين ، سلطانٌ موصولٌ وسليمٌ في وقت واحد ، لأن المفاهيم الاخلاقيـة لا قيمة كبيرة لها عند هؤلاء ، ما لم تكن منصوصاً عليها في صراحة القانون ودقته ، وما لم تحمل معهـا عقوباتٍ واضحة محددة احسن تحديد .

ان الاسلام يحقق هذا المثل الأعلى في الاديان : فما ان

أدرك الإسلامُ ان حاجةَ الطبيعة الانسانيـــة الاساسية هي الى الهداية بالسلطان والحكم أكثر من حاجتها الى الهدايـة بالعظات والمبادىء التجريدية حتى راح يخاطبها في لغـــة الأمر الايجابي المنبثق من قوة مطلقة . وهـذا سبب آخر من أسباب نجاحه العظيم . واذا كان الاسلام قد وفّق الى خلق أمة موحدة قوية مؤسسة على المبادىء الاخلاقيـة في شبه الجزيرة العربية ، حيث سادت فوضى ليس كمثلها فوضى ، وحيث كانت فكرة الحكومة كمؤسسة اجتماعية مستقلة مجهولة بالكليّة ، وحيث كان أيما شكل من أشكال السلطة البشرية يُعتبر غيرَ محتمل ، وحيث كانت القسوة هي القاعدة ، وحيث لم يكن القتل والسرقة جريمتين يُعاقب عليهما ولكن مجرد عملين يستدعيان مبـادرة أسرة القتيل أو المعتدى عليه أو قبيلته الى الأخذ بثأره ، فأن ذلك مـــا كان ليتمّ إلا لأن الاسلام كان قانوناً ودينـــاً في وقت واحد .

إن « الشريعة » ، وهي القـــانون الاسلامي ، ليست وقفاً على الشعائر والطقوس . ان جميع مظاهر الحيـــاة الجماعية الشخصية خاضعةٌ لأحكامها ، وإنها لتهـدفُ الى ربط كل عمل من أعمال الفَرْد بواجباته الدينية . إن جميع فروع القانون تتمثل في الشريعة الاسلامية .

http://www.al-maktabeh.com

ولم يكن في ميسور المتشرّعين عند اشتراعهم القوانين بمضامينها الاخلاقية المختلفة ، ان يرجعوا دائماً الى القرآن، لأن القرآن لا ينتظم غير قلة قليلة من الآيات ذات الصفة التشريعية . وكذلك لم يكن في ميسورهم ان يرجعوا دائماً الى السُّنة التي كانت — على الرغم من انها ملحق ضخم لكتاب الله — غيرَ كافية لحلّ القضايا العديدة التي تُحدثها الحياة اليومية . وهكذا نشهد في العالم الاسلامي نشوء مبدأ الاجماع ، أي اتفاق آراء المسلمين المشهود لهم بالتمتع بأكبر حظ من الثقافة في أيما عهد أو عصر . ومن المتفق عليه أن إجماع الآراء الفضلى هذا يتمتع بسلطة مُلزِمة .

لقد قال الرسول : « لن تُجمع أمتي على ضلال » . والنقاط التي يُجمع هذا الفريق من المسلمين على انها حق وعدل يجب ان تُقبل بوصفها حقاً وعدلاً . وان للقوانين التي تُسَنّ على أساس من مثل هذا الاتفاق صفةً إلزامية .

و«الاجماع» ،الذي كان حجرَ العَقْد في تطوّر الاسلام التاريخي ، سوف يكون هو القوة التطورية في نموّه ايضاً . لقد أجاز للقوانين القائمة بين الشعوب غير العربية الأصل ، إن لم تتعارض مع شريعة الله ، أن تصبح جزءاً من الشرع الاسلامي . ولسوف يكون في ميسور هذا العامل ان يساعد الاسلام اذا اطّرح ذلك الضرب من التصلّب الذي

أصابه مؤخراً (ولقد ظهرت امارات ذلك في الأفق فعلاً) على ان يكيّف نفسه من جديد ، وفي حرّية،مع حاجات العصر الحديث .

وبفضل الاجماع تقبّلَ الاسلامُ ، ودَمجَ ، وأكملَ قوانينَ كانت قائمة قبل بعثة محمد بزمن طويل . ولكنّ لما كانت قيمة هذه القوانين غـــير مشكوك فيها فإنّا لن نقف ههنا لدراستهـــا ، كما اننا لن نناقش بعض مواد الشريعة الاسلامية التي لا يختلف اثنان في حكمتها . إنا سوف نلتفت — بدلاً من ذلك — لنرى أي ردّ نستطيع ان نقدّمه دفاعاً عن تلك المؤسسات الاجتماعية الاسلامية التي تتعرّض ، على نحو خاصٍ ، لنقد الباحثين غـــير المسلمين وهجماتهم .

لقد أفرغ القرآن ، كما أشرنا من قبل ، قواعد قليلة جداً إفراغاً دقيقاً يجعل منها قانوناً ، تاركاً لحكمة أتباعه ، في الكثرة من الاحوال ، حرية الانسجام مع المؤسسات التي تلائم العصر والبلد اللذين يعيشون فيهما . فيا لها من أمارة رائعة على رحمة الله ! بيد أن قواعد ثابتة قـــد وُضعت للزواج ، محرّمةً على أيما امرىء ان يتزوج من نساء تجمع بينه وبينهن نسبةٌ معينة من قرابة الدم . ولم يوجه الى هذا أيما انتقاد من غير المسلمـــين . ولكن

الانتقاد يبدأ ويثور في عنف بالغٍ عندما نصل الى موضوع تعدد الزوجات الذي سمح به القرآن بشروط معينة سوف ندرسها في ما بعد .

وفي استطاعتنا ان نبدأ بالنصّ على أنه لم يُقَمْ الدليل حتى الآن ، بأي طريقة مطلقة ، على ان تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبةٌ في طريق التقدم . ولكنا نؤثر أن لا نناقش المسألة على هذا الصعيد . وفي استطاعتنا ايضاً ان نصرّ على أنه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ أحوال خاصةٌ بعينها — كأن يُقتَل عدد من الذكور ضخمٌ الى حد استثنائي في الحرب ، مثلاً — يصبح تعدد الزوجات ضرورية اجتماعية . وعلى أية حال فليس ينبغي أن نحكم على هذه الظاهرة بمفاهيم العصور المتأخرة لأنها كانت في ايام محمد مقبولةً قبولاً كاملاً وكانت عملاً معترفاً به من وجهة النظر الشرعية لا بين العرب فحسب ، بل بين كثير من شعوب المنطقة ايضاً . والحق أن الشريعة الاسلامية التي تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع إنما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة ، وكان هذا التعدد حرّاً ، قبل الاسلام ، مطلقاً من كل قيد . لقد شجب الاسلام بعض أشكال الزواج للشروط والمؤقت التي كانت في الواقع اشكالاً مختلفة

للتسرّي* الشرعي . وفوق هذا منح الاسلام المرأة حقوقاً لم تكن معروفة قط من قبل . وفي استطاعتنا ، في كثير من اليسر ، أن نحشد الشواهد المؤيدة لذلك لولا أننا نشعر ان الكلام على جانب آخر من المسألة أهمّ وأعظم خطراً.

لقد أجاز القرآن للرجل ان يتزوج امرأتين ، وثلاث نساء ، بل ان يتزوج أربع نساء . ولكنه نصّ في الوقت نفسه على شرط مُضعِف جعلهُ شيئاً لا غنى عنه في تعدد الازواج بأن أصرَّ على الزوج باصطناع العدل الكامل نحو كل زوجة من زوجاته ، قاصداً بـ « العدل » لا مجرد المعاملة المتساوية في الزاد الماديّ بل الحب المتساوي ايضاً .

« وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا
ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ،
فان خفتم ألا تعدلوا فواحـــدة أو ما ملكت
أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا . » **

وفي السورة نفسها ، التي وضعت فيها هذه القاعدة ، نجد آيات أخرى توضح ان الطبيعة البشرية تجعل مثل روح المساواة هذه شيئاً نادراً جداً في الانسان .

---

* أو المعاشرة من غير زواج (المعرب)

** السورة ٤ (النساء) الآية ٣

« ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء
ولو حرصتم . »*

وعلى ضوء ما تقدّم نستنتج أن تعدد الزوجات ، على الرغم من قيام الدليل على إمكانيته ، مستحيل عملياً بصعوبة تحقيق الشرط الضروريّ ، بـــداءةً ، لجوازه . ويقول الزهراوي وأمير علي إن هذه القاعدة الإلٰهية هي في الواقع تحريم . اننا لا نستطيع ان ندافع عن تعدد الزوجات بمجرد النصّ على أنه مقبولٌ عند الله ، كما اننا لا نستطيع ان نتخذ دليلاً عليه حياةَ الرسول الشخصية التي كانت ثمرةَ مسؤولياته الاستثنائية الخاصة . ان بينه وبين سائر الرجال فروقاً كثيرة جداً في تحقيق شرط العدل ، وفي المشكلات والمصاعب التي واجهته الاحداث بها .

لقد اصرّ أعداء الاسلام عـــلى تصوير محمد شخصاً شهوانياً ورجلاً مستهتراً ، محاولين أن يجدوا في زواجه المتعدّد شخصية ضعيفة غير متناغمة مع رسالته . انهـــم يرفضون أن يأخذوا بعين الاعتبار هذه الحقيقة : وهي أنه طوال سني الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون ، وعلى الرغم من انه عاش في مجتمع كمجتمع

* السورة ٤ (النساء) الآية ١٢٩

العرب ، حيث كان الزواج : كمؤسسة اجتماعية ، مفقوداً او يكاد ؛ وحيث كان تعدّد الزوجات هو القاعـــدة ، وحيث كان الطلاق سهلاً الى ابعد الحدود ، لم يتزوج الا من امرأة واحدة ليس غير ، هي خديجة ، التي كانت سنّها أعلى من سنّه بكثير ، وأنه ظلّ طوال خمس وعشرين سنة زوجَها المخلصَ المحبّ . ولم يتزوج كرةً ثانية ، وأكثر من مرة ، إلا بعد ان توفيت خديجة ، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره . لقد كان لكـــل زواج من زواجاته هذه سببٌ اجتماعي أو سياسي ، ذلك بأنه قَصَدَ من خلال النسوة اللاتي تزوّجهن الى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى ، أو الى انشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الاخرى ابتغاءَ شقّ طريق جديد لانتشار الاسلام . وباستثناء عائشة ، ليس غير ، تزوج محمد من نسوة لم يكنّ لا عذارى ، ولا شابّات ؛ ولا جميلات . فهل كان ذلك شهوانية ؟

لقد كان رجلاً لا إلـٰهاً . وقد تكون الرغبة في الولد هي التي دفعته أيضاً الى الزواج من جديد ، لأن الأولاد الذين انجبتهم خديجة له كانوا لسوء الطالع قد ماتوا . ومن غير ان تكون له موارد كثيرة أخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة ، ولكنه التزم دائماً ، على الرغم من

http://www.al-maktabeh.com

عدد زوجاته الكبير ، سبيل المساواة الكاملة نحوهنّ جميعاً، ولم يلجأ قط الى اصطناع حقّ التفارق مع أيّ منهن - لقد تصرّف متأسّياً بسنّة الانبياء القدامى ، مثل موسى وغيره ، الذين لا يبدو أن احداً من الناس يعترض على زواجهم المتعدد . فهل يكون مردّ ذلك الى اننا نجهل تفاصيل حياتهم اليومية ، على حين نعرف كل شيء عن حياة محمد العائلية ؟ ومن أسفٍ ان الناس في الماضي أصمّوا آذانهم عن سماع النصف الثاني الانتقادي من الآية القرآنية التي تدعو المؤمنين الى الاكتفاء بزوجة واحدة ، فلم يُلقوا بالاً إلاّ الى الجزء الاول منها ، ذلك الجزء الذي يجيز لهم الجمع بين الزوجات ، وأنهم أفادوا من الامتيازات التي مُنحوها ، من غير أن يؤوّلوا ، كما كان يتعيّن عليهم ، كلمةَ الله . وفي العالم الاسلامي اليوم ، وبخاصة في تلك البلدان التي شهدتْ ازدهاراً جديداً في الحضارة ، تُكتب الغلبة لاتجاهات اخلاقية جديدة ؛ وبفضل ملابسات مختلفة ، أصبح تعدّد الزوجات مقصوراً على قلة قليلة من المسلمين .

والقرآن يُبيح الطلاق . وما دام المجتمع الغربي قد ارتضى الطلاق ايضاً ، واعترف به في الواقع كضرورة من ضرورات الحياة ، وخلَعَ عليه في كل مكان تقريباً صفةً شرعية كاملة ففي ميسورنا أن نُغفل الدفاع عن

اعتراف الاسلام بـــه . ومع ذلك ، فأننا بدراستنا له ، وبمقارنتنا بـــين عادات العرب في الجاهلية وبين الشريعة الاسلامية ، نفوز بفرصة نُظهر فيها ان القانون الاسلامي قد دشّن في هذا المجال ايضاً اصلاحاً اجتماعياً .

قبلَ عهد محمد ، كان العرف بين العرب قـد جعل الطلاق عملاً بالغ السهولة . كان بحَسْب الرجل ان يقول كلمة واحدة ليس غير ، وأن يقوم بأشارة واحدة، لكي يعيد زوجته الى اهلها . وكان بحَسْب الزوجة ايضاً(وحتى لو لم يكن هذا العرف واسع الشيوع فأن الامثلة عليه في المجتمع الجاهلي لا تعوزنا) أن تقلب حاشية مدخل الخيمة ظهراً لبطن حتى يدرك بعلُها أنهـــا قد فَصَمت الرابطة الزوجية . اما القانون الالٰهي فقد سنّ بعض القواعد التي لا تجيز إبطال الطلاق فحسب بل التي توصي به في بعض الاحوال . فالزوج المسلم ، بعد ان يلفظ كلمة الطلاق ، يحتفظ طوال مدة معينةٍ ، تحيا الزوجة خلالها منفردة ولا تستطيع أن تتزوج ثانية ، بحق إعادتها من غير ما حاجة الى القيام بأي إجراء رسميّ . وفي ختام مدة العزلة تلك فحسب ، او اذا كانت كلمة الطلاق قد لُفِظت وفق شروط خاصة ، يصبح الفراق ثابتاً . وليس للمرأة حق المطالبة بالطلاق ، ولكنها قد تلتمس فسخ زواجها باللجوء

الى القاضي ، وفي امكانها ان تفوز بذلك اذا كان لديها سبب وجيه يبرّره . والغرض من هذا التقييد لحقّ المرأة في المبادرة هو وضع حدّ لممارسة الطلاق ، لأن الرجال يُعتبرون أقل استهدافاً لاتخاذ القرارات تحت تأثير اللحظة الراهنة من النساء . وكذلك جُعِل تدخل القاضي ضماناً لحصول المرأة على جميع حقوقها المالية وغير المالية الناشئة عن انجاز فسخ الزواج .

وهذه القاعدة ، والقاعدة الاخرى التي تنص على انه في حال نشوب خلاف داخل الاسرة يتعيّن اللجوء الى بعض الموفقين ابتغاءَ الوصول الى تفاهم ، نقول ان هاتين القاعدتين تنهضان دليلاً كافياً على ان الاسلام يعتبر الطلاق عملاً جديراً باللوم والتعنيف . والآيات التالية تقرّر ذلك في صراحة بالغة :

« للذين يؤلون من نسائهم تربّص اربعة
أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم .
وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم . » *

وثمة احاديث نبوية كثيرة تحمل الفكرة نفسها ، ومنها :
« أحبّ الحلال الى الله عتق العبد ، وابغض الحلال الى الله الطلاق . »

واجتناباً للاغراء بسوء السلوك ودفعاً لنتائجه يتعين على

---

* السورة ٢ (البقرة) الآية ٢٢٦ – ٢٢٧

المرأة المسلمة ان تتخذ حِجاباً ، وان تستر جسدها كله، ما عدا تلك الاجزاء التي تُعتبر حرّيتها ضرورةً مطلقة : كالعينين والقدمين . وليس هذا ناشئـــاً عن قلة احترام للنساء ، او ابتغاء كَبْت ارادتهن ، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال . وهذه القاعدة العريقة في القدم ، القاضية بعَزْل النساء عن الرجال ، والحياة الاخلاقية التي نشأت عنها قد جعلتا تجارة البغاء المنظمة مجهولةً بالكلّية في البلدان الشرقية ، الا حيثما كان للاجانب نفوذ او سلطان . وإذ كان أحدٌ لا يستطيع ان ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعيّن علينا أن نستنتج ان عادة الحجاب وعدم اشتراك النساء في الحياة العامة ، على الرغم من انهما يمثلان خسارةً من وجهة نظر معينة ، كانا من وجهة نظر ثانية مصدر فائدة لا يُثَمَّن للمجتمع الاسلامي .

ففي تلك البلاد التي لا ينعم فيها جميع السكان بالثقافة ، وهي الشرط الضروريّ الاول لحرية المرأة ، يستطيـــع المرء ان يقول اشياء كثيرة تبريراً لابتعاد النساء عن الحياة العامة ، على الرغم من الايديولوجيات الحديثـــة وانتشار النفوذ الغَرْبـي . وهذا لا يعني ان الاحوال سوف تستمر في الشكل الصلب الذي تتخذه اليوم في معظم بلدان الشرق . فمثل هذا التصوّر يتنافى مع روح الاسلام نفسها ، تلك

http://www.al-maktabeh.com

الروح التي تقول بالتكيّف الموصول مع مقتضيات العصور والشعوب .

« يا أيها النبي قـل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى ان يُعرفن ولا يؤذين ، وكان الله غفـوراً رحيما . » *

« وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن عـلى جيوبهن . » **

إنّ كلمات القرآن هذه ينبغي ان تُفْهـم بالاعتدال المنصف الذي نقع عليه في عادات الرسول الذي ترك لنسائه قدراً كبيراً من الحرية . واذا لم تُفْهَمْ كلمات القـرآن هذه على هذا النحو فعندئذ لا نستطيـع ان نفسّر الدور الذي قامت به نسوة كثيرات في أحداث العصر السياسية وشبه الحربية خلال حياة محمد وبعد وفاته ، من مثل دور عائشة في القتال ضد عليّ (فخلال المعركة المعروفة بواقعة الجمل حثّت الجند على القتال وتعرّضت هي لخطر عظيم) ، أو دور فاطمة بنت قيس الفِهْرية في الاحداث التي أدّت

---

* السورة ٣٣ (الاحزاب) الآية ٥٩

** السورة ٢٤ (النور) الآية ٣١

الى انتخاب الخليفة عثمان ، أو دور غيرهما في كثير من الأحداث الاخرى في صدر الاسلام .

ولكن اذا كانت المرأة قد بلغت ، من وجهة النظر الاجتماعية في اوروبة ، مكانةً رفيعة فإن مركزها ، شرعياً على الأقل ، كان حتى سنوات قليلة جداً ، ولا يزال في بعض البلدان ، أقلّ استقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الاسلامي . إن المرأة المسلمة الى جانب تمتّعها بحقّ الوراثة مثل اخوتها ، ولو بنسبة اصغر ، وبحقّها في ان لا تُزَفّ الى أحد الا بموافقتها الحرة ، وفي ان لا يسيء زوجها معاملتها تتمتع أيضاً بحقّ الحصول على مَهر من الزوج ، وبحق إعالته اياها ، حتى ولو كانت غنية بالولادة ، وتتمتع بأكمل الحرية ، اذا كانت مؤهلة لذلك شرعياً ، في إدارة ممتلكاتها الشخصية .

أما الرقّ الذي بدأ ، على ما يبدو ، مع اقامة المجتمع الانساني والذي استمرّ عَبْرَ الأجيال وبين جميع الشعوب حتى عصرنا الحاضر ، فإن القانون الإلهي لم يُلغه الغاء كاملاً . ولقد اتخذ غير المسلمين من هذه الواقعة ذريعة للتهجم على الاسلام .

يجب أن نذكر ان حالة العبيد بين المسلمين سواء أكان

المسلمون بدواً أو حضراً ، هي أفضل مما يحبّ الاوروبيون أن يعتقدوا (ويستطيع المرء ان يجد مصداق ذلك في كلام كثير من الاوروبيين الذين يزورون البلدان الشرقية) ، ومن غير العدل ان نقارن ما بين الرّق في الشرق وبين الرّق الذي كان قائماً مثلاً ، منذ قرن واحد ، في الولايات المتحدة الاميركية . واي شعور انسانيّ رقيق ينطوي عليه الحديث النبوي القائل :

« لا يقولن احدكم عبدي وأمتي ، ولا يقولن المملوك ربي وربتي . ليقل المالك فتاي وفتاتي أو غلامي وفتاتي ، وليقل المملوك سيدي وسيدتي فأنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل . »

ونحن اذا اعتبرنا هذه الوقائع من وجهة نظر تاريخية فاننا سوف نرى ، حتى في هذا الحقل، العمل الاصلاحي الرائع الذي حققه رسول الله . فهو لم يكتفِ بتقييد الرق (ففي حين كان ممكناً قبل الاسلام ان يفقد الرجل الحر حريته نتيجة لعجزه عن تسديد ديونه ، لم يكن في ميسور ايّ مسلم ان يجعل من ايّ مسلم آخر عبداً رقيقاً) بل وضع للمؤمنين قواعد ، بعضها ايجابي وبعضها سلبي ، ووجّه اليهم الدعوات للسير قُدُماً وتحرير الارقاء جميعاً

تحريراً تدريجياً في الوقت المناسب . ولا ريب في ان التأثير الخيّر لهذه العظات كان خليقاً بأن يؤدي إلى تحرير العبيد لو لم يكن الرقّ ذا جذور قوية راسخة في عادات جميع الأمم ، لا الأمة العربية وحدها ، ومواقفها من الشعوب المغلوبة أو شبه المغلوبة . ولقد حال الناسُ دون انجـاز هذا التحرير ، ايضاً ، بدافع عن عنادهم وتشبّثهم ، بعد ان اساءوا تأويل كلمة الله واعتبروها تفويضاً بالابقاء على حياة الرق .

لقد نصّ القرآن عدة مرات على ان تحرير العبيد هو الكفّارة عن بعض الآثام . * ويؤكد الحديث النبـوي ان اعتاق العبد الرقيق هـو أحبّ الاعمال الى الله . « من اعتق رقبة مؤمنة اعتق الله بكل إرْب منها إرباً منه من النار . »

وعلى هَدْيٍ من روح القرآن ومن الاحاديث النبـوية اقامت عدة مذاهب اسلامية قواعد جعلت تحرير العبيـد امراً الزامياً او ساعدت على تحقيقه في نشاط بالغ . وليس

---

* انظر السورة ٤ (النساء) الآية ٩٢ ، والسورة ٥ (المائدة) الآية ٨٩ ، والسورة ٢٤ (النور) الآية ٣٣ ، والسورة ٥٨ (المجادلة) الآيـة ٣ ، والسورة ٩٠ (البلد) الآية ١٣

في استطاعتنا ان ندرجها كلها هنا . فنجتزىء بالاشارة الى قاعدتين اثنتين تثبتان كيف يستطيع العبد الرقيق ، بجهوده الخاصة ، وفقاً للشرع الاسلامي ، أن يرفـــع نفسه الى مرتبة الرجل الحر ، اذا لم يشأ مالكه أو لم يستطع ان يحتمل الخسارة المالية الناجمة عن اعتاقـــه . ان في استطاعته ان يقدّم الى سيده وثيقة تُلزمه ، حالما يصبح رجلاً حراً ، بأن يدفع اليه في اسرع وقت مستطاع التعويض المتفق عليه . وفي استطاعته أيضاً ان يجيز له ان يكسب بعمله (ومثل هذا الامتياز ذو أهمية بالغة) قدْراً من المال يمكّنه من شراء حريته . قال القرآن :

« والذين يبتغون الكتاب ممـــا ملكت
أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً ،
وآتوهم من مال الله الذي آتاكم . » *

وثمة نقطة اخرى أيضاً . فقد ألزمت الدولة الاسلامية نفسها بأن تساعد — من طريق أموال الزكاة الشرعية — اولئك العبيد الذين يحتاجون الى عَوْنٍ يمكّنهم من شراء حريتهم !

ان الاسلام ، الذي لم يميز يوماً بين الأعراق أو الألوان ،

* السورة ٢٤ (النور) الآية ٣٣

والذي اعتبر الابيض والاسود ، والبدوي والفلاح الحضري ، والحاكم والمحكوم سواسيةً ، لا من الناحية النظرية فحسب ، بل من الناحية العملية أيضاً (والواقع انهم جميعاً يتخالطون في الخيمة ، وفي القصر ، وفي المسجد ، وفي السوق ، من غير ما تحفظ ولا احتياط ، وفي غير ما ازدراء أو غطرسة) نقول ان الاسلام لم يُبِحْ قط أيّ معاملة تنمّ عن احتقار للأرقاء .

أليس من الملائم ان نتذكر هنا ، في معرض الكلام على المساواة الاجتماعية التي فرضها الاسلام ، القصة الجميلة التي تروى عن الملك جبلة (ابن الأيهم) الذي دخل في الدين الجديد ومضى الى مكة في أبهـــة بالغة . وفيما كان يطوف بالكعبة صفع بدوياً وطىء ، على غير قصد منه ، فضل ردائه الثمين . ولقد قضى الخليفة عمـــر بأن يتلقى صفعة مماثلة من البدوي ، لأن الاسلام سوّى بين الناس كافة . وأبى جبلة الإذعان لذلك ؛ وفي تلك الليلة نفسها غادر مكة مع فرسانه الخمسمئة ومضى الى بيزنطة مباشرة حيث تنصّر . وبعد سنوات عديدة ، وفي غمـــرة الجاه والثروة ، ظلّت ذكريات الإسلام تملأ عينيه بالعبرات .

والتاريخ يقدّم لنا أمثلة كثيرة عن أرقاء عُهِد اليهم في مناصب رفيعة مشرّفة (ومن بين هؤلاء بِلال الذي

http://www.al-maktabeh.com

شُرِّف ، بسبب من جمال صوته ، بجعله أول مؤذن في الاسلام) وعن عُتَقاء احتلوا مناصب حكومية مرموقة ، بل ارتقوا عرش الخلافة نفسه . وهنا يكون من الخير ان نتذكّر ، قبل الانتقال الى موضوع آخر ، أن محمداً حرّم أشد التحريم كل تشويه لاجساد العبيد ، وأن عادة تكليف الخصيان بحراسة أجنحة النساء (أو ما يعرف بالحريم) لم تبدأ إلا في عهد الأمويين .

وفي ما يتصل بقانون العقوبات يعرف البـــاحثون ان الشريعة الإلهية لم تنشىء نظاماً جنائياً جديداً . وانما كان ذلك لانه لم يكن ممكناً ،في عصر محمد ، إحداث تعديلات كبيرة في هـــذا الحقل ، ولأن روح الاسلام تقضي بأن يترك أكمل الحرية للناس في اشتراع القوانين التي تلائم طبيعتهم وزمانهم . ومع ذلك فقد أصلح الاسلام القانون القديم ملغياً ، بخاصة ، أخطر النتائج الناشئة عن حق الأخذ بالثأر . لقد قرّر ، وهو يتفق في ذلك مع الشرائع التقدمية والحضارة ، المبدأ القـــائل بأن المذنب ينبغي أن يُعتقل ويعاقب ، ولكنه لم يقترح أو يُقِم أية قواعد محددة إلا في أحوال قليلة . إنّ ما فعله محمد في الواقع هو تثبيت العقوبات التي كانت سائدة قبل الإسلام في قوانين كثير من البلدان ، كالقصاص والتشويه الجسدي ، والاقتصاص

العرفيّ دون محاكمة قانونية . يقول القرآن :

« ولكم في القصاص حيـــاة يا أولي الألباب لعلكم تتقون . » *

فقد اعتقد ان الخوف من عقوبة قاسية كالجريمة نفسها خليقٌ به ان يَعقِلَ يدَ الرجل الذي يقرع باب الجريمة. واذا تأملتَ ، من وجهة نظر منع الاجرام ، في العقوبات القاسية المفروضة على من يرتكب جريمـــة القتل أو الظلم والأذى ، او الفسوق ، او الوشايـــة ، او السكر ، او السرقة واللصوصية ، تشعر بأنها حكيمة جداً ، وبخاصة اذا أُردِفت بالتمجيد القرآني المتكرر للصفـــح والمغفرة ، كشيء مستحبّ عند الله ، وبالاعتدال في المطالبة بالدم ثمناً للجريمة وفي دفع التعويضات . وهذه العقوبات ينبغي ان تُدرس ايضاً عـــلى ضوء المبدأ الاساسي في الشرع الاسلامي ، ذلك المبدأ القائل بأنه ، في موضوع الخروج عن طاعة الله ، يتعين على المؤمن ان يبذل كل ما يستطيع من جهد لاجتناب إنزال العقوبة بالآثم . لقد أقام الله علاقته مع الناس على أساس الرحمة والرأفة . واخـــيراً ينبغي ان يُنظر اليها على ضوء الشروط الكثيرة التي تجعل من العسير جداً ، من الناحية العملية، تطبيق جميع العقوبات المنصوص عليها في القرآن تطبيقاً حرفياً .

---

* السورة ٢ (البقرة) الآية ١٧٩

الفصل السادس

معنى التصوف في الإسلام

http://www.al-maktabeh.com

ومع الايام ، نشأ في الاسلام ، كما نشأ في غيره من الأديان ، عنصر صوفي تأمّلي كان إما ثمرة تطور داخلي طبيعيّ وإما ثمرة مؤثرات خارجية . ففي سنوات الاسلام الاولى ؛ عندما كان الوفاء بواجبات الحياة اليومية مُقدّماً على التأمل الديني ، لم يكن من الممكن ان ينشأ مثل هذا العنصر الصوفيّ . والواقع ان الرغبة في الاقتراب الى الله على نحو مباشر وعاجل ، والفوز بالاتصال بالله كان الأساس الرئيسي لكل عبادةٍ حقيقية . وهكذا فالحاجة الى معرفة الله ، على نحو حدسيّ ، جزء من الايمان .

والحق ان الزهدية الاسلامية ، أو الصوفية كما تدعى في الاصطلاح الفني ، وقد انطلقت من حاجة المؤمنين هذه ، وجدت عنصرها الأول في عاطفة التواصل العميق مع الله التي كان الرسول كثيراً ما ينعمُ بها وهو يتحدث الى أتباعه ، وفي المثل الذي ضربه برحمته العميقة . ولقد

وجدت أيضاً في انتشار النظريات الافلاطونية الجديـــدة انتشاراً واسعاً أرضاً خصبة لتطورها . ولكن فلنكن دقيقين في هذه النقطة . ان الفكرة القائلة بأن آيات القرآن تنطوي على معنىً باطـــنيّ عميق هو أهمّ وأسمى من ذلك الذي يتجلى من القراءة الأولى — ان هذه الفكرة لم تنبع من أيما رغبة في التهرب من صرامة النص والعقائد ، ولكن من الايمان بأن كلمات الكتاب المقدس تعني أكثر وليس أقلّ مما رأى التفسير العاديّ فيها .

إننا لا نجد في النصوص القديمة المشيرة الى فكرة النور الباطني ما يدعم النظرية القائلة ان الرسول أو ورثة تعاليمه الروحية المباشرين دعوا الناس الى اطّراح الحياة المسؤولة في العالم لكي يغذوا ايمانهم ويحققوا المعنى الباطني للعمل الديني . لقد شجب الرسول ، كما رأينا من قبل ، الزهدية ومظاهرها جميعاً . ومع ذلك ، فقد نسي كثير من المسلمين — في غمرة تَوْقهم الى بلوغ الكمال الروحي — ان الوجود الانساني يجب ان يكون صراعاً مستمراً . ومنذ أقدم العهود ، فصل هؤلاء أنفسهم عن العالم وانتقلوا الى نوع من الحياة موقوف بالكلّية على عبادة الله ، يدفعهم الى ذلك استياؤهم من الاسراف في التحرر شبه الوثني خلال العهد الأموي ، أو اشمئزازهم من الأحداث السياسية المتعارضة ومشاعرهم التقية .

ومن التقوى الى السكونية ليس غيرُ خطوةٍ قصيرةً . ومن السكونية الى الزهدية يكون التطور طبيعياً . ان التواصل القديم مع الله والشعور الحدسيّ بأن الكلي القدرة لا يُبْلغ في غمرة من شواغل الحياة الدنيوية قد أثمرا نظرية الترقي الروحي التي أقامت نفسها في الاسلام ، شأنها في الاديان الاخرى ، على انكار المرء لذاته انكاراً تاماً وعلى انصرافه المطلق الى حياة التأمل . ان على الانسان وقــد اكتشف نفسه وحرّر ذاته من الاشياء المادية ، ان يبذل غاية جهده للتفاعل مع جمال الله وخيريته . ان عليـه ان ينفصل عن مظاهر حياته الشخصية لكي يوفق الى تحقيق الاتحاد بين روحه وبين الوجود الإلهي ، وهو وحده الحقيقة. وكانت هذه غاية سامية جداً،غايةً لا بدّ ان تجتذب النفوس التي تلتمس درجة رفيعة من الروحانية . ولقد أسدت الى المسلمين فائدة كبيرة لأنها ، فيما أوحت اليهم فكرة امكان الاتحاد الروحي بالله من خلال الرياضة الطويلة الشاقة ، انشأت عنــدهم الشعور بالسمو الروحي ؛ وبدلاً من الخضوع الأعمى الموَسوَس أقامت تهذيب الذات من طريق الانضباط النُسكيّ ، وانقذت الروح من الاستسلام الى معيار ماديّ.

ومن أسف ان الصوفية سرعان ما اتخذت في عقول كثير من المسلمين — بعد ان جُرّدت من كل شكل من

اشكال الانضباط ـ اشكالاً تتنافى كل التنافي مع الفكرات الاساسية التي بشّر بها محمد . ونتيجة لذلك بـــدأت تنشأ فكراتٌ أحَدية * ، وقوانين جـــديدة غريبة ، ومفاهيم اخلاقية فاسدة . وتهدّد الاسلامَ خطرٌ بالغ . هـذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية أخذ ينشأ خطرٌ لعله كان ادهى من اشكال التفسّخ هذه التي ظهرت ضمن نطاق الصوفية ، أعني بروز اللاهوت التحكّمي (ومن اسفٍ ان الرغبة في فرض المشاكلة (Conformity) وفي كَبْت البدعة او الهرطقة كانت دائماً لعنة النظم الدينية جميعاً) بروزاً جعلتـه عقيماً تلك المناقشاتُ الفارغةُ في مسائل دقيقة جداً لم يكن في ميسور جماهير الشعب ان تفهمها الا بلُغةِ السلوك في الحيـــاة . وقد انتهى هذا اللاهوت التحكّمي الى تجميـــد نفسهِ في ضرب من الشكلية او الصُّورية الشديدة القسوة التي مـــا عادت تُرضي مطامح الروح الانساني الدينية . وافجعُ من هذا نفسه ان الكثرة من الفقهاء ، بدلاً من يَشغلوا أنفسهم بالمسائل اللاهوتية انفقوا وقتهم كله في دراسة ما اعتبروه في المحل الأول من الاهميـة ، اعني الشرع الاسلامي في مختلف تطبيقاته العمليـــة . ولكنهم ، وقد ابتعدت عن

---

* الأحدية : المذهب القائل ان الله والعالم احد واحد . وتـدعى ايضاً : وحدة الوجود **Pantheism**

ابصارهم المفاهيم الروحية السليمة ، أضاعوا أنفسَهم في مناقشات بائسة تهدف الى الافتاء في موضوعات ليس أكثر منها امعاناً في الخيال والاسهاب .

ومن حسن الطالع ان عبقرياً عظيماً ومجدداً ضخماً ، هو الغزالي ، هرع في تلك الفترة العسيرة من تاريخ الاسلام الى انقاذ هذا الدين الذي وهنت قواه وأسيء فهمه ، باعثاً فيه حيويةً جديدةً ، سليمة ، غضّةً ، وقوية . ان دعوته الى حياة صوفية مبنيةٍ على مبادىء السنّة القويمة وعلى التأسّي بالمثل الصالح الذي ضربه أصحاب رسول الله ، أضفت على الاسلام جمالاً جديداً وبعثت حيويتَهُ القديمة . لقد ذهب الى ان تطوير الحياة الدينية كما يفهمها الصوفية ينبغي ان ينهض على أساس من نواميس الاسلام العملية ، وان «الباب» الذي يوصلنا الى تلك الحياة يجب ان يكون معرفة الشريعة ، هذه المعرفة التي يتعيّن ان تكون دائماً نقطة الانطلاق الى العُروج الصوفي والى المعرفة الحدسية بالله . وأمست آراء الغزالي ، كما قَبِلها الاجماع ، حجر الزاوية الذي أقام الاسلام عليه الصرح النهائي لفكراته ومظاهره الدينية ، نافضاً عنه غبار التفسخ الذي قادتهُ اليه تهوُّريّةُ الغُلاة من الصوفيين ، تلك التهوّرية التي ما كانت تعرف حدوداً أو سدوداً . لقد اتّسع أفق الدين ، وارتدّ

الى طهارة الفكر والعاطفة وتكاملها ، وأصبح خبرةً ذات أصلٍ باطني عميق كان حبّ الله هو نقطة الدائرة فيها . وعلى هذا النحو أثّر في حياة المسلمين تأثيراً نبيلاً رحيماً الى أقصى حد مستطاع .

واستقرّ الجانب الكثيف من الفلسفة الصوفية في أديار الجماعات أو « الاخويات » المختلفة . فنشأت الأربطة والخانقاهات في كثير من أجزاء العالم الاسلامي . وحيثما نزلَ « قديس » أو « مرابط » او « وليّ » أو « سيْدي » ـ تبعاً لاختلاف الأسماء باختلاف البلدان ـ ورفعَ صوته متحدثاً عن رؤاه المباشرة لله ، كان المريدون يجتمعون حوله . وهنا كانت الجمعيات الدينية تؤسس ، والتعاليم الصوفية تُعطى .

ولكن لما كان اولئك الذين نستطيع بحقّ ان ندعوهم « أولياء » أو « قديسين » قلةً قليلة من الناس فاننا نجد دائماً الى جانب الزهاد الصادقين المخلصين عدداً كبيراً من الاولياء الزائفين ومجموعة من الجهلة والبلهاء الذين أصابهم النشاط الصوفي باختلاط في العقل . وفي حين أن ما يدعو اليه الأولياء الحقيقيون نافع وخيّرٌ ، فان اثر الاولياء الزائفين كان فاجعاً جداً . ولكن كيف لنا ان نميّز الصالحين من الزائفين ؟ ولقد كانت سُكونية الصوفيّ

http://www.al-maktabeh.com

خطراً ايضاً على الحياة الاجتماعية لانه ولّد ، في مظاهره القصوى ، روحاً من الاتكال السلبيّ على الله وعلى عنايته الالٰهية ، وهكذا شجعت الشخص التقيّ على القعود عن كسب رزقه اليومي بنفسه . ومن هنـــا كانت الصوفية مسؤولة ، بعض الشيء ، من غير شك ، عن انحطـاط الامم الاسلامية الحالي . ولكن هل نستطيع ، من ناحيـة ثانية ، ان ننكر الفائدة الكبيرة التي جناهـا الاسلام من نشاط تلك « الاخويات » الدينية ؟ إن مصادر الحيـــاة الدينية هذه أبقت الروح حيةً في ارجاء الاراضي الاسلامية وحتى في تخومها القصوى ، وكانت أشبه بالواحات الكثيرة المتناثرة في الصحراء الواسعة .

بيد انه من الظلم ان يحكم غير المسلمين على روح الدين الاسلامي نفسهـــا من خلال بعض النظم الخارجية التي اصطنعتها الفرق الصوفية . لأن هذه النظم هي موضع انتقاد العناصر الاسلامية الأوفر ثقافة وذكاء ايضاً .

قال محمد فريد وجدي :

« يجب ان نعذر الاوروبيين اذا صدّقوا جميع الأكاذيب الملفّقة ضد الاسلام والمسلمين ، وهم غير ملومين اذا أظهروا العـداوة لديننا

ما داموا لا يجدون نصب أعينهم غير مشاهد البدَع التي أحدثها رجال ذوو فكر سقيم وارتضاها الناس وزادوا عليها ، وما الى ذلك من الهرطقات والاخطاء المتنافية مع الطبيعة البشرية ومع نواميس المدنية . وكيف نرجو ان يفهم الاوروبيون روح ديننا نفسها ، وهو الدين الوحيد الذي يكفل السعادة الكاملة ، ما داموا لا يعرفون غير بعض مظاهر الاسلام الخارجية التي يشهدونها كل يوم مثل الحشود الضاجّة في الشوارع السائرة خلف الرايات والطبول ؛ والاحتفالات المستهجنة المنافية لكل منطق اخلاقي والتي تقام في جميع مدن مصر يوم مولد الرسول ؛ وعقد حلقات الذِّكر الضخمة امام جمهور يتألف من آلاف الناس ؛ وإرسال الابتهالات الصوفية في صوت جهوري وعلى وقع الانحناءات ذات اليمين وذات اليسار ، وما شابه ذلك ؟

إن على المثقف الشرقي واجبين : الأول ان يعرّف العالمَ كله ان الدين الاسلامي ، الى جانب براءته من كثير من الاخطاء التي ينسبها الكتّاب اليه عادةً ، ومن ذلك الضرب من

الطقوس الدينية التي تريد الجماهير خلعهُ عليه ؛ في حضرة النظّارة ، هو في الحقيقة دستور السعادة الحقيقيـــة ، وانـــه رسول الحضارة الصحيحة ، وانه جديرٌ بالتالي بأن يمنحه كل انسان حبه واحترامه كما منحه الحبَ والاحترام اولئك الفلاسفة الكبار الذين استهلّوه وآمنوا به . والواجب الثاني ان يبذل المثقف الشرقي جهده للتخلص من البدع التي تُثقل خُطى العالم الاسلامي وتمثل لطخة سوداء في صفحة الشرق ، والتي تثير سخريـــة كل من يملك ذرة من عقل . »*

---

* نأسف لاخفاقنا في الحصول على النص الاصلي لكلام الاستاذ محمد فريد وجدي رغم ما بذلنا من جهد في سبيل ذلك . وهذا ما اضطرنا الى ان نترجمه عن الانكليزية مع علمنا بأن ذلك مخالف لأبسط قواعد البحث العلمي . وعسى ان نهتدي قريباً الى هذا النص او ان يهدينا اليه المشتغلون بالدراسات الاسلامية، فنثبته في الطبعة القادمة بحرفه الواحد . (المعرب)

http://www.al-maktabeh.com

الفصل السابع

الإسلام وصلة بالعلم

إن التأمّل العقلاني هو ، كما يقول محمد عبده، اساس الاسلام . وقد رأينا من قبل ان الاسلام ، لكي يوقظ في الانسان الايمان بإلٰه واحد ، لا يلجأ الى المعجزات ، ولكن الى ملكة التفكير العادية عند الانسان . وفي ما بعد، عندما اراد الاسلام ان يوقظ في الناس الأيمان بالرسل والكتب المنزلة ، وقدّم تلك المعجزة الكبرى التي ندعوها القرآن (وهو في ذات نفسه علمٌ ميسورٌ فهمُهُ ، وكلمة الله التي لا يعسر على العقل استيعابها في وقتٍ معاً) لم يتوقع ان يقبل المرء الاسلامَ بأيمان سلبي من غير ما إعمال لعقله . لقد دعاه ، لكي يفهمه ، الى التفكّر فيه الى الحد الذي يسمح به العقل والذكاء الانسانيان ، وتحدّاه ان يُنكر إعجازه بالاتيان بسورة من مثله . *

إن الاهمية التي يضفيها الاسلام على العقل هي من العِظَم بحيث ان الكثرة من المسلمين (وانا اقتبس هنا

---

* السورة ٢ (البقرة) الآية ٢٣

دائماً آراء محمد عبده) ترى انه اذا مـــا ظهر تناقض صريح بين حديث منسوب الى الرسول وبين العقـل فان العقل ينبغي ان يسود ، وان الحديث ينبغي ان يُنبذ بوصفه زائفاً . والواقع ان ثمة سبيلين ليس غير : إما ان نسلّم بأن الطريقة التي يفرضها الحديث يتعذر فهمها ، وإما ان نؤوّله حتى يتناغم مع العقل . ذلك انّ قبـــول المؤمنين بجمهرة الاحاديث كلها كما هي ، وبعضها يكاد يـــدخل في باب الاحالة ، ليس متوقعاً او مطلوباً في الاسلام .

إن ديناً يتخذ من التأمل العقلاني اساساً له ، ويفسح مثل هذا المجال العريض للعقل ، ويأمر باصطنـاع جميع الملكات التي وهبها الله للانسان وبالتالي اصطناع تلك الملكة التي تُعتبر أعظمها على الاطلاق ، وهي ملكـة الذكاء — مثل هذا الدين كيف يمكن ان يكون عقبة في طريق العلم والفلسفة ؟

لقد قيل ان الحضارة الحديثة حققت تطوراً سعيداً في اوروبة لان النصرانية فصلت السلطة المدنية عن السلطة الدينية، ولأن الدول الغربية الحاضرة متحررة من نفوذ الكنيسة ، التي خضعت له طوال قرون ، على حين ان مثل هذا الفصل لا يمكن إحداثه في البلدان الاسلامية لأن السلطة المدنيـــة مرتبطة بالسلطة الدينية بحكم الشرع .

ان الاسلام هو في أكمل المعاني دينٌ ودولة . فبالاضافة الى انه حمل رسالة الله الى الانسان ، قرّر حقوقاً وواجبات أيضاً وأدرك ان السلطة لا بد منها لرعايـــة تلك الحقوق والواجبات . ولكن الخليفة ليس هو ، في نظر المسلم ، رئيساً دينياً . انه ليس معصوماً عن الخطأ . وهو لا يزعم انه يتلقّى الوحي من الله ولا يتظاهر بأنه قادر على تفسير القرآن والحديث تفسيراً مُلزِماً . ولكي يقـــيم العدلَ ، يتعيّن عليه ان يكون قادراً على ان يفهم مصدرَيْ التشريع هذين فهماً كافياً يمكّنه من ان يرى الفرق بـــين الحق والباطل ، ولكنه مثل سائر المسلمين في فهمة لكتاب الاسلام المقدس . وهو يُطاع ما دام ملتزماً الحدود التي رسمتهـــا الشريعة له . أما اذا تخطّى هذه الحدود فعندئـــذ يكون لرعاياه الحق في إعادته الى الطريق القويم ، في تحذيره ، حتى اذا لم يُبالِ بكلمتهم كان لهم الحق في انتخاب خليفة جديد بدلاً منه . يقول حديث نبويّ مشهور : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

فالخليفة اذن هو ، من وجهات النظر جميعاً ، حَكَمٌ مَدَنيٌّ وليس حاكماً دينيـــاً يستمدّ سلطته من الله ، أو حاكماً دينياً له على رعاياه ، نتيجةً لايمانهم ، حق الطاعة على نحو محتوم . ففي الاسلام سلطة دينية واحـــدة ليس

غير ، اذا كان في استطاعتنا ان نطلق هذا اللفظ عـــلى سلطة قوامُها القدرة التي منحها الله جميع المسلمين ، من أحقرهم الى أرفعهم ، على تشجيع المؤمنين عـــلى اتّباع سبيل الخير ، واجتناب سبيل الشرّ . ان القاضي ، والمفتي ، وشيخ الاسلام لا يتمتعون الا بسلطة مدنية ، لأن أياً منهم لا يستطيع ان يفرض سلطته عـــلى نحو يتعارض مع ايمان أحدٍ من اخوانه في الدين .

كيف نستطيع ان نقول ان الاسلام عاقَ نموّ الثقافة في القرون السالفة ونحن نعلم ان بلاطات الاسلام ومدارسه كانت آنذاك منارات ثقافةٍ لاوروبة الغارقـــة في ظلمات القرون الوسطى ؛ وان أفكار الفلاسفة العرب بلغت آنذاك منزلةً رفيعة جعلت العلماء الغربيين يقتفون آثارهم ؛ وان هرون الرشيد أصدر أمره آنذاك بأن يُلحق بكل مسجد مدرسةٌ يتلقّى فيها الطلاب مختلف العلوم ، وان المكتبات الحافلة بمئات الآلاف من الكتب كانت مشرعة الابواب ، آنذاك ، في وجه العلماء والدارسين في طول العالم الاسلامي وعرضه ؟ ألم يكن العـــرب أول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل ان يعلن بايكون ضرورتهـــا بزمن طويل ؟ وتطور الكيمياء ، وعلم الفلك ، ونشر العلم الاغريقي ، وتعزيز دراسة الطب ، واكتشاف مختلف القوانين الفيزيائية

http://www.al-maktabeh.com

أليست هذه من مآثر العرب ؟

واذا كان ذلك كذلك ، فعندئذ لا نستطيع ان نقول ان من طبيعة دينهم ان يخلق عقبات في طريق تقدم العلم. فلنقل ، بدلاً من ذلك ، ان الحنكة السياسية اضطرت في بعض الاحيـــان ، من اجل الحفاظ على الأمن في بعض المناطق ، الى كبت تيارات الفكر التي قد تصبح خطِرةً على النظام العام ، وان المنازعات السياسيـة ، وفي بعض الأحيان الشخصية ، لا الأسباب الدينية ، هي التي قرّرت في الماضي مسالك الفقهاء ، والمتشرعين ، والمحـدّثين ، والفلاسفة . بيد ان علينـــا ان نقرّ ان في بعض البيئات الاسلامية ، اليوم ، اعتراضات قوية على العـــلم العقلاني والصناعة الحديثـــة . فالأفغـان ، والفرس ، والهنود لا يزالون متمسكين تمسكاً اعمى بتقاليدهم القديمة . وشعوب المغرب تستبدّ بهم ضروب التعصّب المغالى فيه . ولا يزال ثمة فقهاء يتشبثون بحرفية الكتب التي يعتبرونهـــا اساسيةً تشبثاً يحملهم على رفض التعبير عن رأيٍ عندما تنشأ قضية لا يجدون في تلك الكتب القديمـــة ما يهديهم الى حلّها . وقد يحاول هؤلاء الفقهاء إبقـــاء تلك القضية معلّقة ريثما ينجحون في الاتفاق على رأي يحظى بقبول حسن، صادر عن احد مؤلفيهم المفضّلين . ولكن من غـــير الانصاف

اتهـام روح الاسلام بالتصلب والجمود ، لمجرّد بعض الاحوال المحلّية التي ترجع اليوم الى ظروف تاريخية بعينها، او لمجرّد التهجم الذي تتكشّف عنه عقلية بعض الجماعات الاسلامية .

ومن أسفٍ ان الدين الاسلامي ، بعد ان كان كنزاً عربياً وبعـد ان عرّب العلم اليوناني ، سقط في ايدي الاتراك ، والتتار ، والمغول . ذلك ان هـذه الاقوام ، بعد ان اتخذ العرب منها جنوداً مرتزقة وبعد ان توافدت عليهم لاكتساب الثروة ليس غير ، استولت عـلى العالم الاسلامي ، ودخلت في دين العرب المغلوبين ، متشحةً برداثه من غير ان تفهم روحه الحقيقيـة ، ومن غير ان تتهذب قلوبها به . وهذا ما جعل تلك الجماعات الدخيلة عاجزة عن الدخول دخولاً حقيقياً في عبقرية الاسلام . لقد حاول هؤلاء البرابرة ان يخدّروا عقول رعـاياهم ، وان يُفقدوهم اهتمامهم بالعلم لكي يسيطروا عليهم في سهـولة ريسر . وحصروا في ذواتهم ، وفي ذواتهم فحسب،حقّ تفرير شؤون الجماعة وقضاياهم كلها، متخذين من فكرة الجبرية الالـهية وسيلة لحرمان رعاياهم من التفكير،ولوضع انفسهم في مركز منيع يمكّنهم من الدفاع عن الفكرة القائلـة بأن ابواب النِعم الالـهية أمست منذ اليوم موصدة في وجه

الوافدين الجدد جميعـــاً . وكيف يمكن ان يكون هذا منسجماً مع القرآن ونحن نعلم ان الله يأخذ هذه الخطيئـــة نفسها على أتباع الديانات الاخرى ؟* .

وعلى هذا النحو حُرم المؤمنون من التفكير والمحاكمة ، واكرِهوا على اتّباع آراء أسلافهم . وبكلمة ، فان هؤلاء المتطفلين هم الذين شوّهوا وجـــه الدين الذي اعتنقوه ، واتّبعوا شعائر الاسلام الخارجية من غير ان يفهموا أو يكونوا راغبين في أن يفهموا روحه الأكثر عمقاً . بهذا نفسّر نشوء ذلك « التحجّر » في الاسلام ، الذي كانت له نتائج خطِرة جداً ، لا في الدين أو في التشريع أو في الدراسات الأدبية والفلسفيـــة فحسب ، ولكنْ في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية أيضاً .

ولسنا نعتقد ان ثمة حاجـــة الى ان نعزّز ذلك بأدلة وشواهد اضافية . ومن حسن الطالع ان الجمود مرض لا بدّ ان يزول ، بل انه في الواقع شرع يزول في ما يبدو . فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرّفْهُ قطّ لا اصدقاؤه ولا أعداؤه ، لا المثقفون ولا الأميون ، ذلك الكتاب الذي لا يُبليه الزمان والذي لا يزال الى اليوم كعهده يوم أوحى الله به الى الرسول الأمّي البسيط ، آخـــر الأنبياء حَمَلة

* السورة ٢ (البقرة) الآية ١٦٦

الشرائع — الى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون . حتى اذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب . وثمة بيّنات قوية على ان هذه العملية قد بدأت فعلاً .

انتهى

http://www.al-maktabeh.com

فهرست

	صفحة
مقدمة	٧
مقدمة الترجمة الانكليزية	٩
١ . سرعة انتشار الاسلام	١١
٢ . بساطة العقيدة الاسلامية	٤١
٣ . معنى الشعائر الاسلامية	٦٣
٤ . الأخلاق الاسلامية	٧٣
٥ . الحكم الاسلامي والحضارة	٩١
٦ . معنى التصوف في الاسلام	١١٣
٧ . الاسلام وصلته بالعلم	١٢٥

مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين